كتاب الشباب

سِرُّ البُحَيْرَةِ الفَارِغَةِ



أحمد عبدالسلام البقالي

مكتبة العبيكان



سِرُّ البُحَيْرةِ الفارِغَة

بقلـم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان ، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبد السلام

سر البحيرة الفارغة . ـ الرياض .

... ص؛ ... سم

ردمك ٤ ـ ٢٦٧ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ القصص البوليسية العربية أ ـ العنوان

ديوي ٠٨٧٢، ٨١٣ ١٧/٠٥٠٧

ردمك ٤ ـ ٢٦٧ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع : ١٧/٠٥٠٧

الطبعة الأولى ١٤١٧هـ
الطبعة الثانية - مكررة
١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥
هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

وقفَ الشرطيُّ عبدُ الصمـدِ المُعَكْـرَطُ يتـابعُ، منْ نـافـذةِ مكتبـهِ، بمنظارِهِ المكبِّر، سيـارةً عائليـةً كبيرةً كانتْ تتـوقفُ في نهايةِ الشـارعِ، راقبَها حتَّـى توقفتْ، ونـزلَ منهَا غـلامٌ في نحوِ العاشرةِ، تـوجَّهِ في الحالِ لمسـاعدةِ والِـدِه على إنزالِ الأمتعـةِ.

والتفتَ الشرطيُّ إلى مسـاعـدِهِ الشابِّ النشيطِ رشيـدٍ العـوامِ، وقالَ لهُ مشيرًا إلى الغلامِ:

- علينَا أنْ نضعَ عينًا علَى ذلكَ الغلامِ!

فقال رشيدٌ متصنِّعًا الجدَّ:

- عينًا، يا سيِّدي؟ أية عينٍ: اليمنَى أم اليسرَى؟

فوقعَتْ صفعةُ الشرطيِّ القديمِ علَى قفاهُ، وقالَ معنِّفًا:

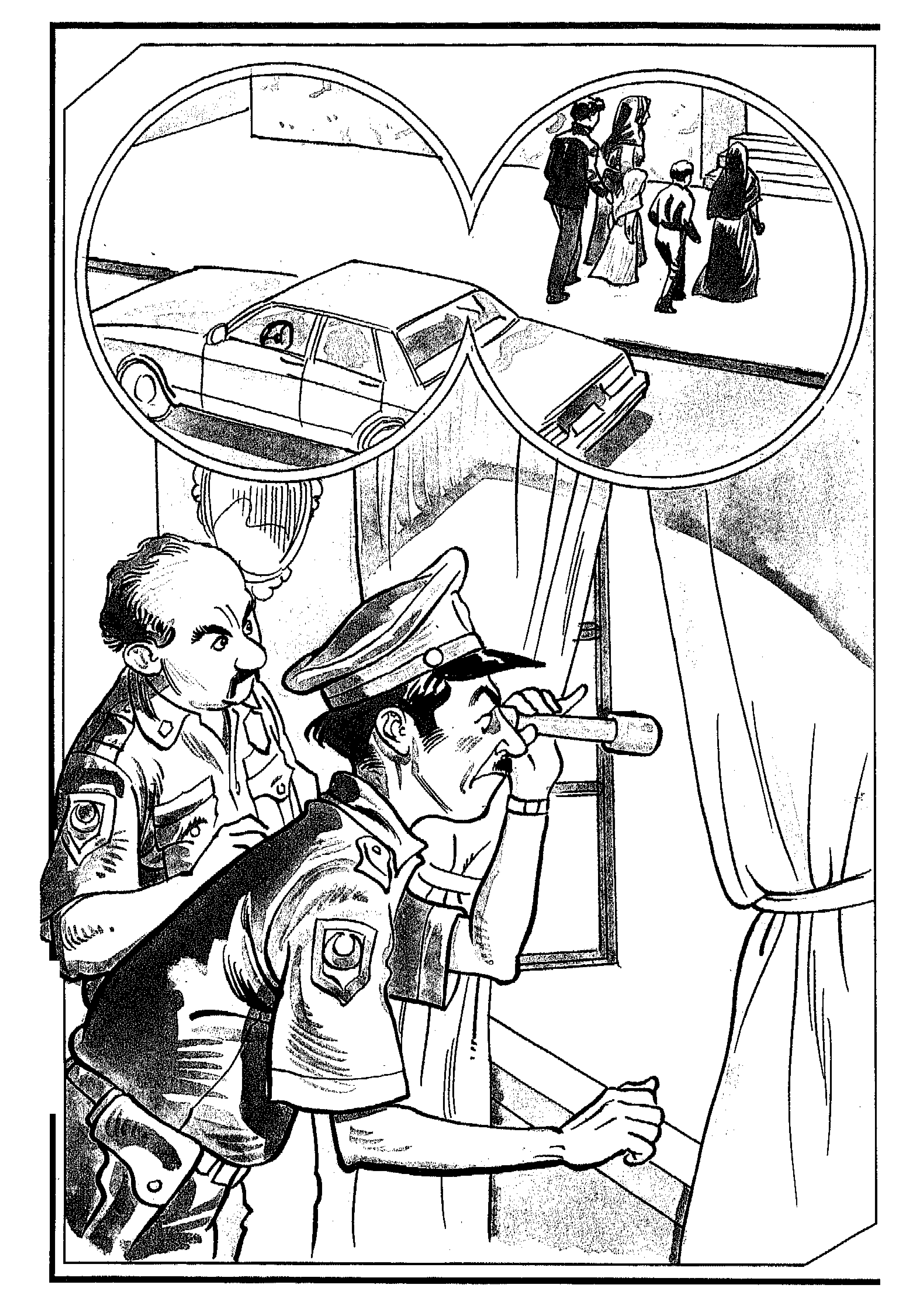
- تُنكِّتُ، يا مغفل؟! مزاجكَ رائقٌ؟! سنَرى كيفَ ستقومُ بهذهِ المهمـةِ، وإلاَّ اضطـررتُ لاقتـلاعِ إحـدَى عينيْكَ بيـدِي ووضعِهَا علَى الـولدِ يـونسَ الفـاضليِّ؛ إنَّه يتحـرَّكُ تحركاتٍ

مشبوهةً هذهِ الأيامَ، وينفردُ طويلاً على شاطئ بُحَيْرَةِ الصخرةِ.

كانَ الشرطيُّ عبدُ الصمدِ المعكرطُ مشهورًا في القريةِ بعبدِ الصمدِ النَّكِدِ، وبالشرطيِّ السوريـاليِّ؛ لغرابةِ أطوارِهِ وسلوكِهِ البعيدِ عنِ المنطقِ. كانَ طويلاً نحيفًا جاحظَ العينينِ مُضحكَ الحركاتِ، يشكُّ في كلِّ ما حولَهُ، ويؤمنُ بأنَّ كلَّ شخصٍ مذنبٌ حتَّى تَثبُتَ براءَتُه! وبفضلِ هذَا الطبعِ العجيبِ الغريبِ تنقَّل عبدُ الصمَدِ النكِدُ بينَ عددٍ كبيرٍ منْ مراكزِ الشرطةِ، وتركتْهُ زوجتُه التِي أعياهَا الرحيلُ، وانتهَى بِهِ المطافُ إلى هذهِ القريةِ الشاطئيّةِ الهادئةِ؛ لعلَّ هواءَ البحرِ ورائحةَ الطحالبِ واليودِ تعيدُ إلى عقلِهِ الاتزانَ. ولولا أنَّهُ كانَ مدعومًا منْ شخصيةٍ كبيرةٍ لكانَ طُرِدَ منَ الشرطةِ منذُ اليومِ الأوَّلِ!

باتَ يونُسُ الفاضليُّ يحلُمُ بأصدقائِهِ أسماكِ البحيرةِ...

كانَ قدْ عادَ معَ أبويْهِ منْ عطلَتِهِمُ الصيفيَّةِ بالجبلِ إلى قريتِهِمُ الشاطئيَّةِ بعدَ الغروبِ، فلمْ يتمكَّنْ منَ النزولِ إلى



البحيرةِ لإطعام الأسماكِ والاطمئنانِ عليهَا.

كانَ ينـزلُ كلَّ يومٍ في أوقـاتِ فرَاغِـهِ إلى البحيرةِ حامـلاً معهُ بقـايَـا الطعـامِ ليلقيَ بِهَا إلى أسماكِ البوريِّ الفضيّـةِ الـرشيقـةِ، ويتفـرَّجَ عليهَـا وهـيَ تتسـابقُ إليهـا وتتخـاطَفُهـا بـأفـواهِهَـا العريضةِ، دونَ أنْ تتعاركَ!

ورغمَ تشـابُهِهـا الكبيرِ فقـدْ كـانَ يـونسُ يميّـزُ بعضَهـا عنْ بعضٍ، ويطلِقُ عليهَـا أسماءَ وألقـابًـا غـريبـةً يخترِعُهـا لهَا... وكَـانَ يميِّزُ قـادتَها الثلاثـةَ وهيَ تتقدَّمُ أسرابَها، وتقـودُها بثِقـةٍ وحزمٍ. وحينَ تُحِسُّ بأيِّ خَطَرٍ تتراجَعُ بسرعةٍ خاطفةٍ، فيتراجَعُ السربُ بأكملِهِ أوْ ينحـرِفُ معَها بالسرعـةِ نفسِهَا، وكأنَّـه قطعةٌ واحدةٌ!

كانَ ذلـكَ يثيرُ إعجابَ يونـسَ الفاضليِّ، ويسلّيـهِ تسليةً لا مزيدَ عليهَا... وكانَ يقضِي بجـانبِ البحيرةِ أوقاتًا طيبةً، يقرأُ وينصِتُ إلى الموسيقَى الخفيفةِ منْ مذياعِهِ المسجلِ الصغيرِ.

وألفتْهُ الأسماكُ، فلمْ تَعُدْ تَخافُهُ، بلْ صارتْ تقترِبُ من ضفَّةِ

البحيرةِ التِي يقفُ أو يجلِسُ عليهَا. وكانَ هوَ يضَعُ قتاتَ الخبزِ في كفِّهِ أحيانًا، ويقدِّمُهُ لهَا، فتأكلُ منْهُ. وتزدحِمُ على يدِهِ، وتصعَدُ فوقَها أحيانًا، فيرفَعُها فوقَ الماءِ، ويَمَسُّ ظُهورَها بسبابَتِهِ، وهيَ راضيةٌ آمنَةٌ مطمئنةٌ. . .

وفي تلكَ الليلةِ كانَ شوقُهُ إليهَا عظيمًا، لدرجةِ أنَّهُ نامَ وهوَ يفكِّرُ فيهَا. . . وتحوَّلَ تفكيرُهُ إلى أحلامٍ، فرأى الأسماكَ الفضيّةَ ملونةً، وقد كبرتْ وسمنتْ. ورأى نفسَهُ يقدِّمُ لها الطعامَ وهيَ تأكلُ منْ يدِهِ.

وحينَ انتهَى ما كانَ معَهُ منْ طعامٍ أخرجتْ كبرَى الأسماكِ رأسَها منَ الماءِ، وقالتْ بلسانٍ طليقٍ:

– شكرًا! شكرًا!

واندهشَ يونسُ، ولم يَدْرِ ما يقولُ. . . وما كادَ يخرُجُ منْ عجبِهِ حتَّى أخرجتْ سمكةٌ أخرَى رأسَها من الماءِ، وسألتْهُ:

– ما اسمُك؟

فوجدَ نفسَهُ يجيبُهَا، وقدْ خفَّتْ دهشتُه:

- اسمِي يونسُ، يونسُ الفاضليُّ.

- ماذَا تفعلُ هناكَ خارجَ الماءِ؟

- أنَا لستُ سمكةً.

- ألاَ تخافُ أن تختنقَ؟

- لا. أنَا أتنفَّسُ الهواءَ، وأختنقُ إذَا غُصْتُ مثلَكُنَّ في الماءِ!

فتضاحكتِ الأسماكُ، وقالَ أصغرُهَا:

- يا له من مخلوقٍ غريبٍ! يتنفَّسُ الهواءَ، ويختنِقُ تحتَ الماءِ!

ودخلَ يونسُ معَ الأسماكِ فِي حوارٍ طويلٍ شيِّقٍ، وكأنَّهُمْ جماعةٌ منَ الأصدقاءِ القُدامَى.

وبينَما هوَ كذلكَ إذْ وقفَ عليهِ صيادانِ عملاقانِ. قالَ أحدُهُمَا لصاحبِهِ:

- لا بُدَّ أنَّ هذَا الغلامَ مجنونٌ... إنَّهُ يكلِّمُ نفسَه!

واحتجَّ يونسُ:

- أنَا لستُ مجنونًا! أنَا أتكلَّمُ معَ أصدقائِي الأسماكِ!

فضَحِكَ الرجلانِ. وقالَ الأولُ:



- ألمْ أقلْها لكَ ؟!

وأنزَلَ الأوَّلُ شبكـةً من فوقِ كتفِـهِ، وفتحَهَا، ثمَّ ألقَى بهَا فِي شكلِ دائرةٍ وسطَ البحيرةِ فـوقَ الأسماكِ، ويـونسُ ينظـرُ غيرَ مصدقٍ!

وسحَبَ الصيّادُ الحبلَ، فـانقَفَلَتِ الشبكةُ علَى جميعِ الأسماكِ التِي كانتْ مجتمعةً علَى السطحِ . . . وجـرَّهَا إلى ضفَّةِ البحيرَةِ، وأطلَعَهَـا، فإذَا هيَ عـامـرةٌ بـالأسمَاكِ، وهيَ تصيحُ وتستغيثُ بيونسَ.

وارتمَى يونـسُ على الشبكةِ، يـريدُ أنْ ينزِعَهَـا من يـدِ الصيادِ العملاقِ، فـأمسكَ به الثـانِي من قَفاهُ، وتعـاونَ عليهِ الـرجلانِ الضخمانِ، ولفَّا عليـهِ حبلاً، وكمَّمَاهُ بخِرقةٍ غطَّتْ فمَـهُ وأنفَهُ، وربطَاهُ إلى صخرةٍ، وتركاه هناكَ، وذهبَا . . .

وحاولَ هوَ أنْ يصرخَ ويستغيثَ بأبيهِ، فلَمْ يستطعْ، وأحسَّ بالاختنـاقِ الشديدِ، وبانحبـاسِ أنفاسِهِ لـدرجةِ الإشرافِ علَى الموتِ!

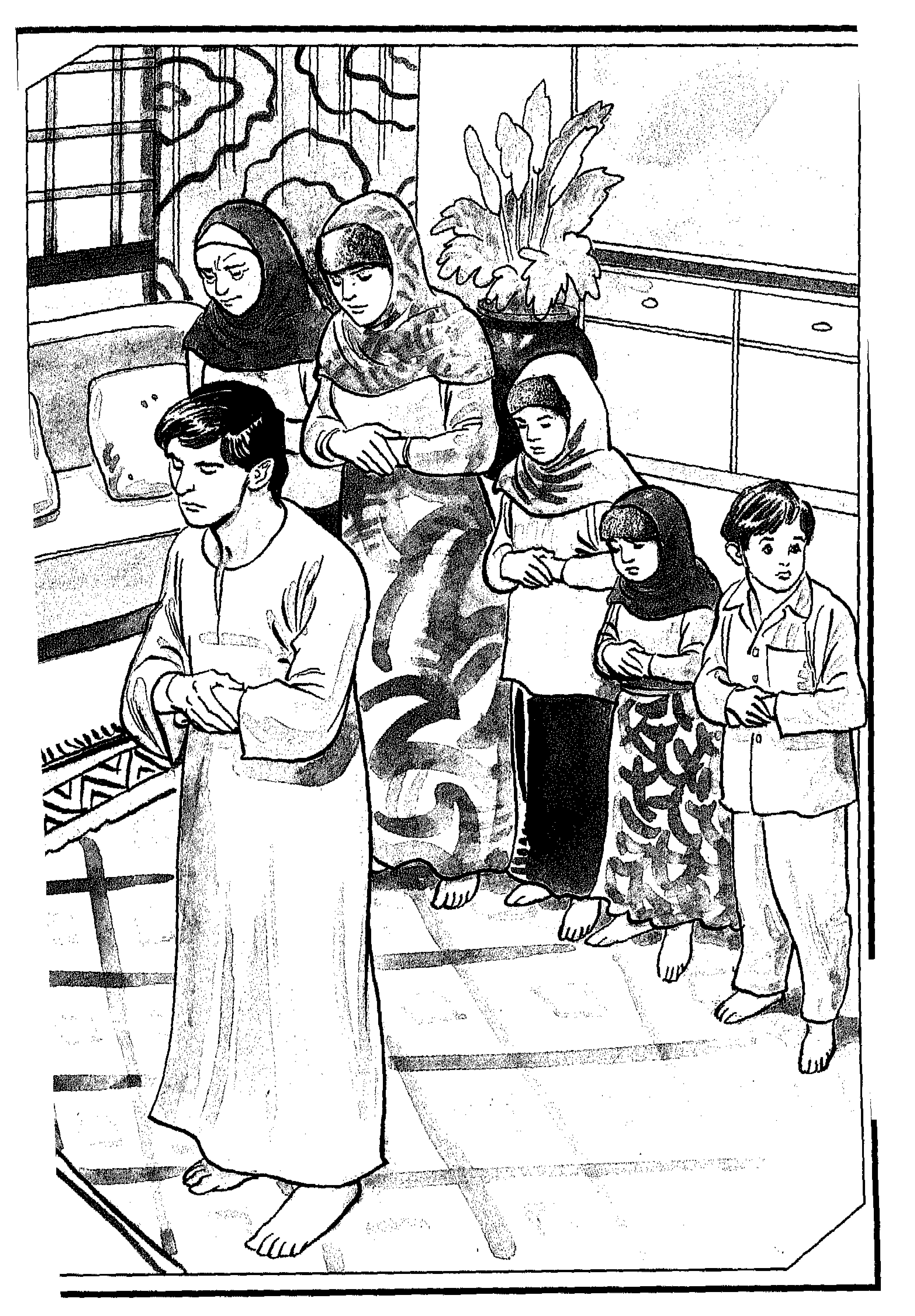
وبينَمَا هوَ يكـافحُ للخروجِ مِن الحبلِ، إذْ سقطَ في البحيرةِ، فإذَا بـهِ يستيقِظُ من نـومِـهِ، ويجدُ نفسَـهُ نائمًا على وجهِـهِ فـوقَ الأرضِ بجانبِ سريـرِهِ، وقدْ طَلَعَ الفجـرُ. . . فحمِدَ اللهَ علَى أنَّ ما رآهُ كانَ مجرَّدَ كابوسٍ ثقيلٍ !

وسمِعَ صوتَ والِدِهِ يناديهِ للقِيامِ لصلاةِ الصبحِ. . .

وقفَ يـونسُ وأمُّـهُ وأبُـوهُ وجـدَّتُـهُ وأختُـهُ حسنـاءُ والخادمُ، كعـادتِهم، صفًّـا وراءَ والِـدِهِ الحاجِّ محمَّـدٍ الفـاضليِّ يـؤدونَ الصلاةَ. ولكنَّ ذِهْنَ يونُسَ كـانَ يشردُ، ويذهبُ بهِ إلى البحيرةِ وأسماكِهَا. كانَ يقاوِمُ شوقَهُ إلَى الأسماكِ ليركِّزَ في صلاتِهِ حتَّى لا يذهبَ أجرُهَا بغيابِ الخشوعِ.

وبمجرَّدِ انتهـاءِ الصلاةِ ركَضَ يونُسُ إلى الثلاجـةِ حيثُ تركَ كيسًا منَ البلاستيكِ بِهِ بقـايَا طعامٍ كثيرةٌ، وانطلقَ يعدُو صَوْبَ البحيرةِ.

وحينَ وقفَ عليهَـا وهوَ يلهثُ كادَ قلبُـهُ يتوقَّفُ للمفـاجأةِ! كانتِ البحيرةُ فارغةً تقريبًـا من الماءِ. . . كانَ يتوقَّعُ أن يجدَهَا،



كمَا اعتادَ، عـامرةً إلى حفافِهَـا بماءِ البحرِ البِلَّـورِيِّ الصَّافِي. . .
وبمجـرَّدِ مـا يقعُ ظِلُّـهُ بـداخِلهَـا تتسـابقُ أسرابُ أصـدقـائِهِ
وصديقـاتِهِ من أسماكِ البـورِي إلى تحيَّتِهِ، والصعـودِ إلَى السطحِ
للنظرِ إليـهِ بعيونِها المستـديرةِ الجاحظةِ، وتفتَحَ أفـواهَها طـالبةً
منهُ أنْ يلقيَ إليها بمَا جاءَ بِهِ منْ شهيِّ الطعامِ. . .

إلا أنَّـهُ هذهِ المرةَ وجـدَ البحيرَةَ جافَّـةً، وقدْ تـراكَمَ الملْحُ علَى
قعرِهَـا لطولِ غيـابِ الماءِ، لم يبْقَ منْ مـائِهَا إلاّ مَا احتفظَـتْ بِهِ
بعضُ الحفـرِ العميقـةِ والشِّعـابِ والأخـاديـدِ المتفـرِّعـةِ تحتَ
الصخـورِ. وكـانَ مــاءً عكـرًا ملـوَّثًـا بأوسـاخِ جلـودِ الضَّأْنِ
وأصـوافِهَا التِي تغسِلُهـا النسـاءُ فيهَا، ولا يمكنُ أنْ تبقَى فيـهِ
سمكةٌ علَى قيدِ الحياةِ.

وأحسَّ يـونسُ بخيبةِ أمـلٍ شديـدةٍ، وانهمـرَتِ الدمـوعُ من
عينيْهِ. وحاولَ كبحَهَا ليكونَ رجلاً، كمَا كانتْ تقولُ له أمُّهُ حينَ
يبكِي، فلمْ يستطِعْ. . .

وأطفأتِ الدموعُ حرارةَ الغُصَّـةِ التِي كانتْ في حلْقِهِ، وأحسَّ
ببعضِ الارتيـاح، ووجـدَ نفسَـهُ يدعـو اللـه لهؤلاء الأصحـاب

الذين طالما أحبهم، واستمتع بصحبتهم، واستأنس برفقتهم. وتمنى لو كان يستطيع أن يراهم ثانية، ولكن. . .

وحينَ انتهَى وهَمَّ بالرجوعِ إلى دارِهِ تذكَّرَ كيسَ الطعامِ، فعادَ وأفرَغَهُ في أعمقِ الحفرِ وأكبرِهَا، ولمْ يكَدْ يديرُ ظهرَهُ حتَّى خُيِّلَ إليهِ أنَّهُ سَمِعَ نَأْمَةَ حركةٍ داخلَ الحفرةِ القذرةِ. . . والتفتَ. . فإذَا الماءُ فعلاً يتحرَّكُ، وإذَا فتاتُ الطعامِ ينجذِبُ إلى أسفلَ، ثُمَّ يعودُ إلَى السطحِ، وإذَا الأسماكُ الصغيرةُ تتسابقُ إليه وتتجاذبُه وتتزاحمُ حولَهُ. . .

ووجدَ يونُسُ نفسَهُ يقولُ بصوتٍ مكبوتٍ:

«يا إلهي! إنَّها ما تزالُ حيَّةً! ما تزالُ حيةً، رغمَ كلِّ تلكَ القذارةِ!».

ونزلَ إلى قَعْرِ البحيرةِ لينظُرَ إليهَا منْ قريبٍ، فأخرجَتْ هيَ رؤوسَها لتنظُرَ إليهِ، وفتحتْ أفواهَهَا، وكأنَّها تشكُو إليهِ، وتستغيثُ بهِ ممَّا هيَ فيهِ منْ عذابٍ! وأخذَ يدورُ حولَ نفسِهِ حائرًا لا يدرِي ما يفعلُ!

كانَ مـاءُ البحيرةِ يأتيهَا من البحرِ القـريبِ أيامَ المدِّ الأعلَى، في منتصفِ الشهـرِ القمريِّ. وقـد بَقِيَ عَلَى منتصفِ الشهرِ مـا يزيـدُ علَى أسبوعٍ. وفكَّـرَ يونسُ أنَّ الأسماكَ يستحيلُ أنْ تعيشَ فِي ذلكَ الماءِ العفنِ الآسنِ أكثرَ من ساعاتٍ...

وخطـرتْ ببـالـهِ فكـرةٌ، فتـوجَّـهَ راكضًـا إلى دارِهِ، وصـاحَ بالخادمِ:

- سعيدةُ! هاتي سطلينِ كبيريْنِ واتبعينِي!

وكانتْ سعيدةُ تساعدُ أمَّـهُ في إعدادِ الغداءِ بالمطبخِ، فسألتْهُ الأمُّ:

- لماذَا تريدُهَا؟

- سأقولُ لكِ فيمَا بعدُ.

- إنهَا مشغولـةٌ الآنَ. ألا يمكِنُ أنْ تؤجِّلَ ما ستفعلُهُ إلَى مـا بعدَ الغداءِ؟

- إنه لا يحتملُ التأجيلَ... إنهَا مسألةُ حياةٍ أو موتٍ!

وفزعتِ الأمُّ، ولكنَّها أذِنَتْ للخادمِ في الذهابِ معهُ.

وسمعَ أبوهُ ذلكَ، فوضعَ جريدتَهُ، وخرجَ من غرفةِ الجلوسِ:

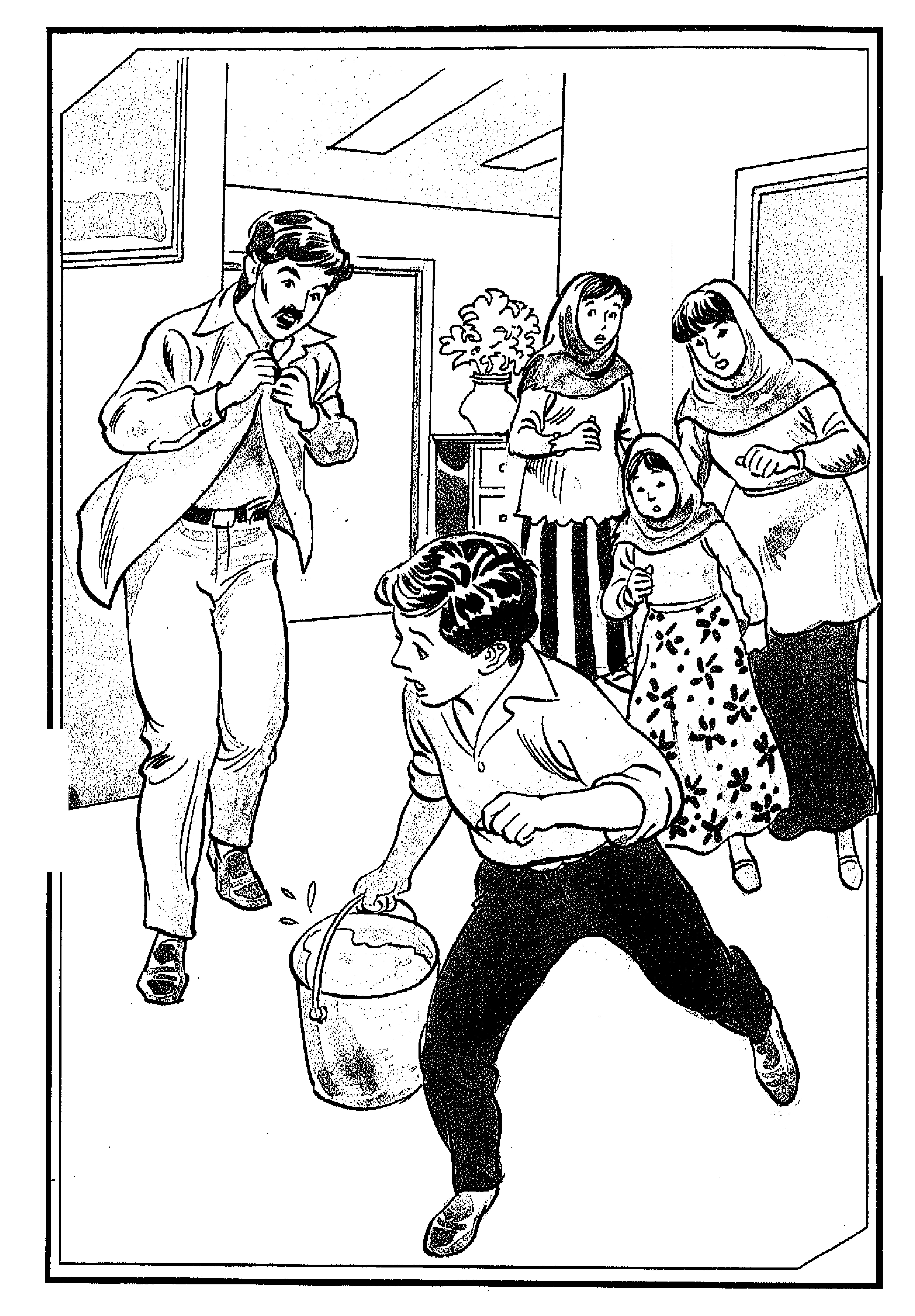
- ماذَا يا يونسُ؟

- لا شيء! لا شيءَ!

- لا شيءَ؟! ألم تقلْ إنَّهَا مسألةُ حياةٍ أوْ موتٍ؟!

- فعلاً، حياةِ أسماكِ البحيرةِ؛ فقدْ غارَ ماؤُهَا، ولم يبْقَ منهُ إلاّ قليلٌ ملوَّثٌ في حُفَرٍ بقعرِهَا...

كانَ يونسُ خائفًا منْ أنْ يسخرَ أبوهُ منهُ، ويتَّهِمَهُ بالصبيانيَّةِ والمبالغةِ، ولكنَّ الرجلَ انشرحَ لاهتمامِ ولدِهِ بحياةِ هذهِ المخلوقاتِ اللطيفةِ البريئةِ البكماءِ التِي لا تستطيعُ الدفاعَ عنْ نفسِهَا ضدَّ عدوانِ الإنسانِ! فطالمَا حدَّثَهُ بأنَّ الحيوانَ شريكُنَا في كوكبِنَا، ولهُ الحقوقُ نفسُهَا التِي لنَا، وعلينَا نحنُ واجبُ حمايتِهِ والمحافظةِ على بيئتِهِ نقيَّةً طاهرةً. قالَ الأبُ:



- تعالَوا إذنْ، ماذَا ننتظِرُ؟!

وحمَلَ كلٌّ منَ الثلاثةِ سطلينِ كبيرينِ، وتوجَّهُوا إلَى البحيرةِ.

وكانَ البَحْرُ هادئًا كالحمَلِ الوديع، وفي أقصَى مدِّهِ الصغيرِ. فتطوَّعَ الأبُ بالنزولِ منْ أعلَى الرصيفِ الصخرِي إلَى مستوَى البحرِ، وأخذَ يملأ الأسطالَ ويرفعُهَا إلى يونسَ والخادِمِ.

وأخذَ يونسُ سطلاً فارغًا، وملأهُ منْ ماءِ الحفرةِ الملوثِ، وذهبَ بهِ بعيدًا، وأفرغَهُ في حفرةٍ خاويةٍ. وفعلتِ الخادمُ مثلَهُ حتَّى كادتِ الأسماكُ تكونُ بلا ماءٍ، وحينئذٍ أفرغَ سطلاً من الماءِ الصافِي وسطَ الحفرةِ، وأتبعَهُ بسطلٍ آخرَ وآخرَ إلى أنْ ملأهَا. وأطلَّ بداخلهَا، فبانَ لهُ قعرُها، لصفاءِ الماءِ ونقائِهِ. وتنفَّسَ الصُّعَدَاءَ، وكأنَّهُ كانَ حابسًا أنفاسَهُ!

وخرجتِ الأسماكُ تحتفِلُ بذهابِ الماءِ الملوَّثِ وامتلاءِ الحفرةِ بالماءِ الجديدِ النظيفِ المشبعِ بالأكسجينِ...

ولمْ تمضِ ساعةٌ حتَّى كانَ الثلاثةُ قدْ تعبُوا واحمرَّتْ وجوهُهُم

وتصبَّبَتْ عرقًا، ولم يمتلئ من البحيرَةِ إلا جـزءٌ من قعرِهَا. فقالَ الأبُ وهو يمسحُ عرقَهُ بمنديلِهِ:

- أعتقـدُ أننَـا أنقـذنَـا الأسماكَ الآنَ. ولكنْ مـا فعلنـاهُ لا يكفِي. أنَـا أظنُّ أنَّ البحيرةَ مـوصـولـةٌ بـالبحـرِ من مكـانٍ مـا بقعرِهَا. فليـسَ منَ المعقولِ أنْ يغورَ ماؤهَا لهذِهِ الـدرجةِ بفعلِ التبخـرِ وحدَه! وهيَ كثيرةُ المغـاورِ والشقـوقِ. ومنَ الصعوبـةِ العثورُ على الثقوبِ التِي يتسرَّبُ الماءُ منهَا إلى البحرِ.

قال يونسُ:

- لذلكَ علينَـا أن نقنَعُ بملئِهَا حتَّى يأتِيَ مـوعدُ المدِّ الأعلَى، ويملأهَا الموجُ.

* * *

ورغمَ سعادتِهِ بإنقاذِ الأسماكِ نامَ يـونسُ مشغولَ البالِ بالثُّقْبِ الذي ينفُذُ منهُ مـاءُ البحيرةِ إلى البحرِ؛ فبدونِ العثورِ على الثقبِ وإغـلاقِهِ ستبقَى المشكلـةُ بـلا حلٍّ أبدًا. وكلَّمَا تأخَّـرَ المدُّ الأكبرُ غاضَ ماءُ البحيرةِ أكثرَ، وتعرَّضَتِ الأسماكُ للموتِ اختناقًا.

واختلطَ تفكيرُ يونسَ بأحلامِهِ، وانخرطَ في نومٍ عميقٍ.

وأيقظَهُ أذانُ الفجرِ، وأحسَّ بيدِ جدَّتِهِ الحنونِ علَى خدِّهِ وهيَ توقظُهُ للصلاةِ. وبقيَ هو في فراشِهِ ينصِتُ إلى صوتِ المؤذِّنِ الرخيمِ في هدأةِ الليلِ، وهو يردِّدُ: «الصلاةُ خيرٌ من النومِ».

وخيِّلَ إلى يونسَ أنَّهُ يسمعُ بينَ الفقرةِ والفقرةِ صوتَ شيءٍ بعيدٍ لمْ يستطعْ تمييزَه... وسكتَ المؤذنُ، وسادَ هدوءٌ مطلقٌ، فأصاخَ بسمعِهِ إلى الصوتِ الغريبِ البعيدِ، فإذَا هوَ خريرُ ماءٍ. ولمعَتْ في ذهنِهِ فكرةٌ جديدةٌ فقفزَ منْ سريرِهِ، وتوجَّهَ إلى الحمامِ، فتوضَّأ وانضمَّ إلَى صفِّ المصلينَ وراءَ أبيهِ، تتجاذبُهُ فريضةُ الخشوعِ والرغبةُ الملحةُ في تنفيذِ الفكرةِ الطارئةِ...

ولم تكدِ الصلاةُ تنتهِي حتَّى انطلقَ يونسُ يعدُو نحوَ البحيرةِ. وكانَ هدوءُ الصباحِ شاملاً، والجوُّ صافيًا صفاءَ المرايَا، والبحرُ نائمًا بلاَ حراكٍ... ونزلَ يونسُ إلى قعرِ البحيرةِ التِي كان عمقُها يزيدُ علَى مترينِ، وقصدَ الحفرةَ التِي ملأوهَا

بالأمسِ، فوجدَ ماءَها قدْ نقصَ نصفُه.

ووقفَ ينصتُ، ثــمَّ انبطحَ علَى أرضِ البحيرةِ اليــابســةِ، وأرهفَ سمعَــهُ فإذا خريـرُ الماءِ الـذِي سمِعَـهُ في نومِـهِ يأتِي من أحـدِ الشقـوقِ العميقةِ في قـاعـدةِ البحيرةِ. واقتربَ منْ الشقِّ فـزادَ صـوتُ الخريـرِ وضـوحًـا، فــوقفَ وهـوَ يكـادُ يطيرُ من الفرحِ...

وعَادَ راكضًــا إلى بيتِهِ، فوجـدَ والدَهُ يسقِي الحديقـةَ، فبادَرَهُ لاهثًا بدونِ مقدماتٍ:

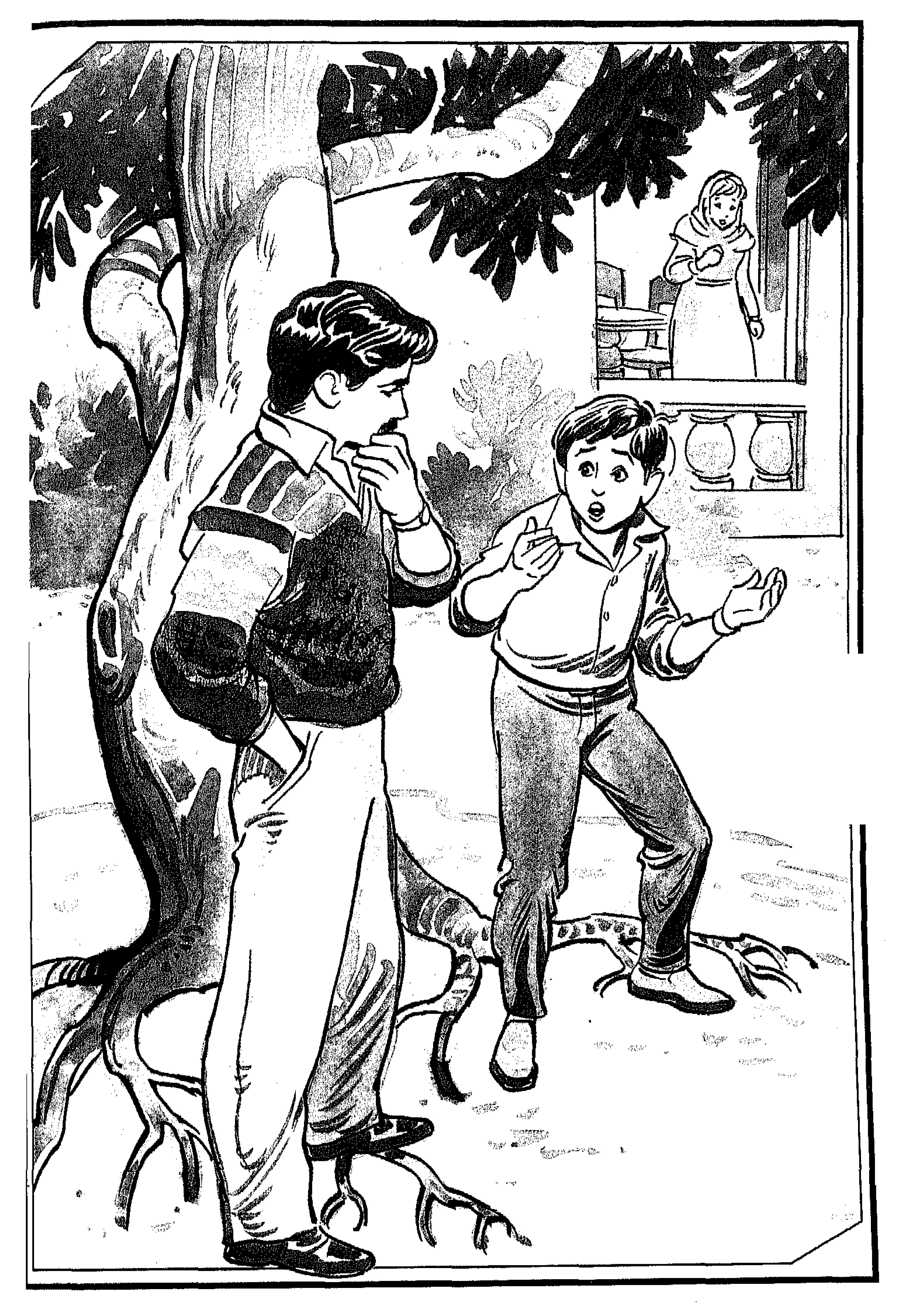
– وجدتُها! وجدتُها، يا أبي!

– ماذَا وجدتَ؟

– الفجوةَ التِي يتسربُ منهَا ماءُ البحيرةِ إلى المحيطِ!

– حقًّا؟

وكادَ يقسِمُ بــاللهِ، لولاَ أنَّهُ تـذكَّرَ نصيحةَ والِـدِه بعدمِ القسَمِ على التـوافهِ، متـذكِّرًا الآيةَ الكـريمـةَ ﴿ولا تجعَلُـوا اللهَ عرضـةً



لأيمانِكُم﴾، فقال:

- حقًّا يـا أبي. وقدْ نزلَ ماءُ الحفـرةِ التِي لجأتِ الأسماكُ إليهَا إلى نصفهَا. وعلينَا أن نعيدَ ملأها.

ونـزلَ الثـلاثـةُ مـرةً أخـرَى إلى البحيرةِ، وانتقلتْ عـدوَى الحماسِ إلى الأمِّ، فتبعتْهُم هيَ كـذلكَ، تحملُ سطلينِ وتَصيحُ خلفهُمْ:

- انتظرونِي!

ونـزلَ الأبُ إلى قعرِ البحيرةِ، واقتربَ منَ الشـقِّ الذِي أشـارَ إليـهِ يونسُ، وأنصتَ فلمْ يسمَعْ شيئًـا... كـانَ قلبُه يـدقُّ في أذنيهِ فيحجـبُ عنهُ الخريرَ. وأنصتَتِ الخادمُ الصغيرةُ، فقـالـتْ متحمسةً:

- نعمْ يا سيدِي! إنهُ خريرُ ماءٍ يتسرَّبُ بعيدًا داخلَ هَذا الشقِّ.

وجـاءَ يـونسُ بسطلِ مـاءٍ، وصبَّـه داخلَ الحفـرةِ، وانتظـرَ قليلاً، ثم قالَ لأبيهِ:

- أنصِتِ الآنَ .

وأصغَى الأبُ ، ثم قال متحمسًا :

- الآنَ أسمعُهُ .

واقتربتِ الأمُّ ، وأنصتَتْ ثمَّ علَّقَتْ :

- منْ هنَـــا إذنْ يتسرَّبُ الماءُ ، ويفـــرغُ البحيرَةَ عنِ الأسماكِ المسكينةِ !

وملأ الأربعةُ الحفرَة بماءٍ جديـدٍ ، وما كادُوا ينتهونَ حتَّى كانَ الجميعُ قدِ اقتنعُوا بضرورةِ إغلاقِ الشقِّ .

وبعدَ الإفطارِ خرجَ الحاجُّ محمدٌ الفـاضليُّ ، وعادَ ببنَّاءٍ شابٍّ اسمُـهُ عبدُ القـادرِ ، ومعَهُ أدواتُـهُ وكيسُ إسمنت في عربـةِ نقلٍ يدويةٍ .

ولم تمضِ سـاعةٌ حتَّـى كانَ الشقُّ قـدْ أغلقَ تمامًـا . وأنصتَ البنَّاءُ الشابُّ إلى شقوقٍ أخـرَى مجاورةٍ فلم يسمعْ خريرًا ، فقالَ مؤكدًا :

- لنْ تفرُغ البحيرةُ بعدَ اليومِ.

ورفضَ أن يتقاضَى أجرَهُ قائلاً:

- هـذَا عملٌ للهِ، وأجرِي عليـهِ عنـدَه، إلَى جانبِ أنَّنِي أنَـا كذلكَ أحبُّ الجلـوسَ علَى ضفةِ هذه البحيرةِ الجميلـةِ والتفرُّج على أسماكِهَـا، وأقلُّ مَـا يَجِبُ أنْ نحـافظَ عليهَـا عـامـرةً بـالماءِ النقيِّ.

ودعاهُ الحاجُّ محمدٌ الفاضليُّ للغداءِ معَهُمْ، فقبلَ مسرورًا.

وأثناءَ الغـداءِ لاحظَ يونـسُ أنَّ أختَهُ الصغيرةَ حسناءَ كـانتْ تمُصُّ عصيرًا بجُعْبـةٍ منْ علبة بـلاستِيك، فخطـرتْ لهُ فكـرةٌ. والتفتَ إلى عبدِ القادرِ البنَّاءِ سائلاً:

- هل تستعملونَ مضخاتِ الماءِ في البناءِ؟

- أحيانًا، حينَ يكونُ الأساسُ عميقًا ويرشِّحُ ماءً.

وأدرك والدُهُ الهدفَ من سؤالِهِ، فسألَ البناءَ:

- هلْ يمكنُكَ أنْ تحصُلَ لنَا على واحدةٍ؟

- بسهولةٍ . لماذَا ؟

ولم يتمَّ السؤالَ حتَّى فَهِمَ هوَ الآخرُ الهدفَ ، فأضافَ :

- فكرةٌ جيدةٌ .

وبعـدَ الغـداءِ الشهيِّ وكـؤوسِ الشـايِ المنعشـةِ ، استأذنَ عبدالقادرِ البناءُ فِي الذهابِ .

ولم تمضِ ساعـةٌ علَى غيابِـهِ حتَّى رنَّ جرسُ البـابِ ، فإذَا هوَ نفسُـهُ يسوقُ نـاقلةَ أمتعـةٍ صغيرةٍ ، وعليهَا مضخـةٌ كبيرةٌ ذاتُ خراطيمَ طويلـةٍ واسعةٍ . ونظرَ إليهَا يـونسُ غيرَ مصدقٍ عينيْهِ ، ونزَل يلمسُهَا . ويسأَلُ عن صبيبِها في الثانيةِ .

وصاحَ بأبيهِ ، فخرَجَ هَـذَا ، ونظرَ إلى المضخَّةِ ، فَلَمَعتْ عيناهُ سرورًا بهَا وحماسًا لاستعمالِهَا في أقربِ وقتٍ .

وتبعَ الجميعُ الناقلةَ وهيَ تسيرُ على مَهَلٍ بينَ الصخورِ إلَى أنْ وصلتْ إلَى حفافِ الرصيفِ الصخريِّ الذِي يفصلُ البحيرةَ عن البحـرِ . وتعاونَ الجميعُ على حملِ المضخَّـةِ الثقيلـةِ ، ووضعُوهَـا على صخرةٍ ملساءَ ، وأدلَـوْا أحدَ خراطيمِها في البحـرِ والثانِيَ في

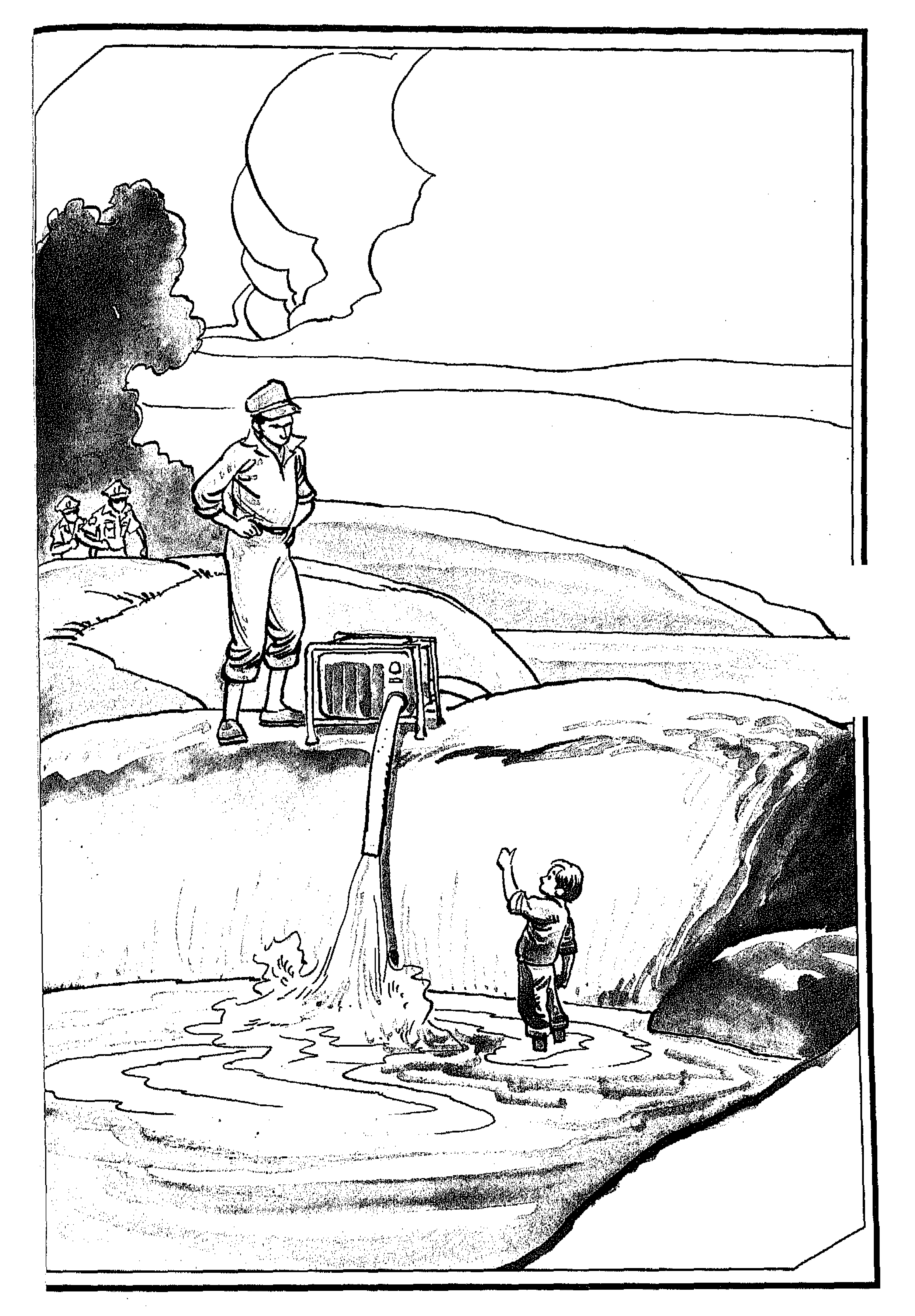
البحيرةِ. وكانَ خزانُهَا مليئًا بالـوقودِ، وجذبَ عبدُ القادرِ حبلَ المضخةِ بقـوةٍ، فعملَ محركُها. ولم تمضِ ثـوانٍ على دورانِهِ حتَّى اندفعَ الماءُ بقـوةٍ هائلةٍ من الأنبوبِ الواسـعِ صوبَ قعرِ البحيرةِ الناشفِ الظمآنِ. . .

وقفـزَ يـونسُ فـرحًـا، ثمَّ نَـزَعَ حـذاءَهُ، ونـزلَ إلى البحيرةِ، وعرَّضَ قـدميْهِ لصبيـبِ الماءِ المتدفقِ سعيـدًا ببرودَتِهِ ودغـدغَتِهِ للقدمينِ. . .

ومنْ وراءِ صخرةٍ كـانَ الشرطيُّ عبدُ الصمدِ يـراقبُ العمليَّةَ بمنظـارِهِ المقرِّبِ بـارتيابٍ شـديدٍ، ويـدعُو مسـاعدَهُ الشـابَّ رشيدًا للمراقبةِ. . .

واشتغلتِ المضخـةُ بدونِ انقطاعٍ حتَّـى أذانِ المغربِ. وأصرَّ عبـدُ القـادرِ علَى البقـاءِ بجـانبِ المضخَّـةِ إلَى أنْ يتغطَّى قعـرُ البحيرةِ على الأقلِّ.

وبعـدَ صلاةِ العشـاءِ جـاءَ يونـسُ بطعامِ العشـاءِ، وجلسَ يتعشَّى معَهُ، ويتفرَّجُ كالمخدَّرِ على الماءِ وهوَ يرتفعُ ببطءِ عقربِ



الساعةِ. كانَ سطحُ الماءِ عبارةً عنْ مرآةٍ تزدادُ اتساعًا مع مرورِ الدقائقِ والساعاتِ، وكانَ النظرُ إليهَا تحتَ ضوءِ النجومِ الخافتِ يريحُ النفسَ ويبعثُ في الذاتِ خدرًا لذيذًا. . .

ووقعتْ عينُ يونسَ على بقايا الطعام، فقامَ ورمَى بهَا في البحيرةِ الهادئةِ. ولم تمضِ إلا ثوانٍ حتَّى أحاطتْ بهَا الأسماكُ منْ كلِّ جانبٍ، وأخذتْ تتجاذبُهَا بشهيَّةٍ مفرطةٍ. . .

وبينَما هُما كذلكَ إذ فوجئَا بضوءِ مصباحٍ قويٍّ يسلَّطُ عليهِمَا وبصوتِ رجلٍ خشنٍ آمرٍ يصيحُ فيهِمَا:

- لا تتحركَا ! الْزَمَا مكانكُمَا وارفَعا أيديكُما !

ووقعَ الضوءُ على وجهِ يونسَ فرمشت عيناه، وأظلَّهُمَا بيدِهِ اليمنَى. وانتقلَ الضوءُ إلى وجهِ البنَّاءِ الشابِّ، فنطقَ أحدُ الرجلينِ:

- إنهُ عبدُ القادرِ البناءُ، ومعهُ يونسُ ولدُ الحاجِّ محمدٍ الفاضليِّ.

وأسكتَ عبدُ القادرِ المضخةَ ليسمعَ مَا سيقولُه الزائرانِ الليليَّانِ. قالَ أكبرُهُمَا سنًّا:

- أنتُمَا مقبوضٌ عليكُمَا !

فاستعاذَ عبدُ القادرِ باللهِ بصوتٍ خفيضٍ، وقالَ ليونسَ :

- إنَّهُ الشرطيُّ المجنونُ، عبدُ الصمدِ النكدُ !

ورفعَ صوتَه سائلاً :

- ولكنْ لماذَا ؟

فقالَ الشرطيُّ العَكِرُ المزاجِ باحثًا عن سببٍ معقولٍ :

- لماذَا ؟! تريدُ أنْ تعرفَ لماذا نقبضُ عليكُمَا؟! لقولِك لماذَا! هذَا لماذَا! رجلُ الأمنِ لا يُسألُ لماذَا يفعلُ هذَا أو يتركُ ذلكَ .

وضحكَ رشيدٌ، فسُمِعَتْ ضربةٌ على ظهرِهِ، وصوتُ عبدِ الصمدِ يصيحُ فيهِ :

- اخرَسْ !

وتدخَّلَ رشيدٌ :

نقبضُ عليكَ بتهمةِ إقلاقِ راحةِ السكانِ .

فصحَّحَه عبدُ الصمدِ بصفعةٍ على قفاهُ:

- نقبضُ عليكُمَا . . .

فهمسَ رشيدٌ :

- لا نستطيعُ القبضَ على الـــولـــدِ الصغيرِ. فـــذلكَ مخالفٌ للقانونِ!

فسُمِعَتْ خبطةٌ أخرَى وصوتُ النكدِ يعاتبُ مساعدَه :

- تُظهِرُ عليَّ علمَـكَ، يا ولـدُ؟ القانونُ هنَـا هوَ أنَـا! وسنقبضُ عليهمَا معًا. فهمسَ يونسُ لعبدِ القادرِ:

- ابقَ أنتَ معَهُما. أنَا ذاهبٌ لأخبرَ والِدي.

واستغلَّ تحرُّكَ الشرطيينِ للقبضِ عليهمَا وابتعـــادِ الضـــوءِ، واختفَى بينَ الصخورِ بعيـدًا عن قبضةِ النكدِ. ووقعَ ضـوءُ فنارِ رشيـدٍ علَى ظهرِ يـونسَ فأبعـدَه عنهُ في الحالِ، ليتيحَ لـهُ فرصـةَ الإفلاتِ.

وفي طـريقِ عبـد الصمـدِ للقبضِ على عبـدِ القـادرِ عثَـر في حجــرٍ، ووقعَ في البحيرةِ، فـانطفـأ فنـارُه، وابتلَّ المســدسُ. وسلَّطَ عليـهِ مسـاعـدُه فنـارَه، فإذَا هـوَ واقعٌ على وجهِـهِ وسطَ البحيرَةِ، يحاولُ الوقـوفَ ويشهَقُ لبردِ الماءِ، ويبحثُ عنْ قبَّعتِهِ الرسميـةِ، ويسبُّ من كانوا السبب في عمله بهَذِهِ المهنـةِ التعسةِ التي لم يلق منها خيرا أبدا!

وجاهدَ مسـاعدُهُ الشابُّ لكبْتِ قهقهتِهِ حتَّـى لا يزدادَ رئيسُهُ غيظًا وحنقًـا عليهِ، فتحوَّل ضحِكُهُ إلَى شهيقٍ عميقٍ كـالبكاءِ، فصاحَ فيه عبدُ الصمدِ:

– هاتِ الفنارَ، وابحثْ معِي عن القبعةِ.

ووجدَهَـا رشيدٌ طافيـةً على جانبِ البحيرةِ، فالتقطَهَـا وقالَ لرئيسِهِ:

– ها هِيَ، يا سيدِي... ها هيَ قبعتُكَ.

وخـاضَ عبـدُ الصمـدِ في الماءِ إليـهِ، فتعمَّـدَ هـذا أن يضعَ القبعةَ على رأسِ رئيسِهِ عامرةً بالماءِ...

وسُمعتْ شهقةٌ عاليةٌ ثمَّ ضربةٌ صماءُ وقهقهةٌ مكبوتةٌ !

وانتقلَ عبدُ القادرِ إلى ضفةِ البحيرةِ الأخرَى ليساعِدَ الشرطيَّ على الخروجِ. ولكنَّ هذَا رفضَ يدَه وأمسَكَ بيدِ مساعدِهِ رشيدٍ. وما تمكَّنَ منهَا حتَّى جذبهُ بقوةٍ إلى الماءِ، ووقفَ يضحكُ ضحكًا عاليًا مجروحًا كصراخِ الديكِ. . .

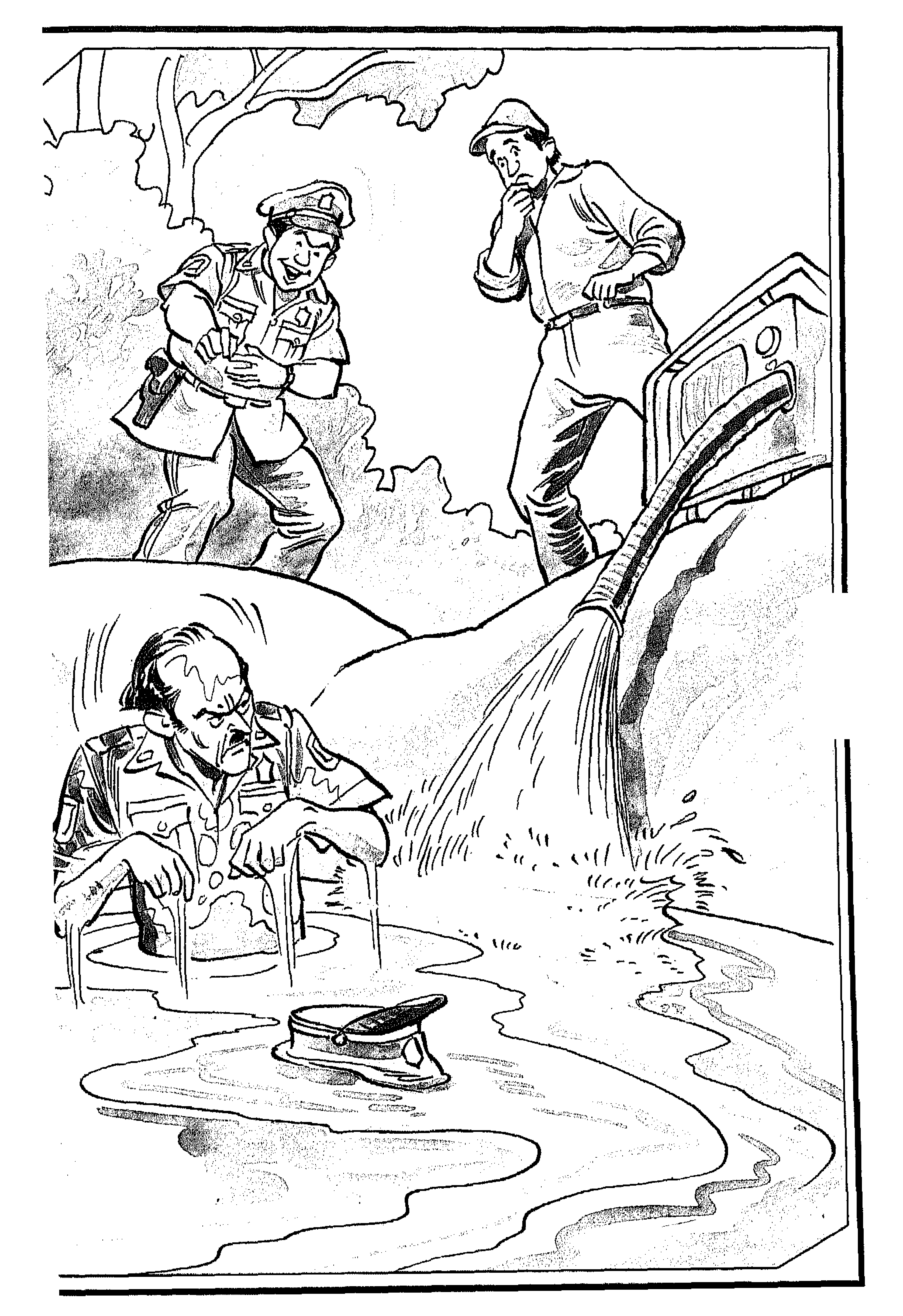
وخلع الشرطيانِ ملابسَهُمَا الرسميةَ الصيفيةَ الخفيفةَ، وأخذَا يعصرانِها، وعبدُ الصمدِ يلومُ عبدَ القادرِ، ويحمِّلُهُ مسؤوليةَ كلِّ مَا حدثَ، ويطلُبُ منهُ أنْ يذكِّرَهُ في مركزِ الشرطةِ ليضيفَ حادثَ السقوطِ إلى سلسلةِ التهمِ التِي ينوِي توجيهَهَا إليهِ، وعلَى رأسِهَا فرارُ يونسَ، ووجودُ البحيرةِ، وظلامُ الليلِ، و. . .

وحينَ ارتَدَى الشرطيانِ بذلتَيْهِمَا صاحَ عبدُ الصمدِ في عبدِالقادرِ البنَّاءِ:

– هيَّا ! سِرْ أمامَنَا. . .

فقالَ البناءُ ببرودةٍ:

– لا.



فسألَ عبدُ الصمدِ مستنكرًا غايةَ الاستنكارِ:

- ماذَا قلتَ ؟!

- قلتُ : لاَ.

فانبسطَتْ أساريرُ النكدِ، وظهرَ عليهِ سرورٌ عظيمٌ، وأخذَ يردِّدُ متعجبًا :

- إنهُ قالَ لا! أسمعتَ، يا رشيدُ!؟ الآنَ حصلنَا على تهمةٍ من الدرجةِ الأولَى، ستضمنُ لنَا وضعَ هذَا المجرمِ الخطيرِ وراءَ القضبانِ بقيةَ حياتِهِ، إذا لم يكنْ أكثرَ. إنهَا تهمةٌ قدْ تؤدِي إلي ثلاثةِ إعداماتٍ علَى الأقلِّ! وبعدَ ذلكَ السجن مدَى الحياةِ، إذَا لم يكنِ المؤبَّد أو أطول من ذلكَ !

فسألَ رشيدٌ مسترشدًا :

- أيةُ تهمةٍ، يا سيدِي؟

- مقاومةُ الاعتقالِ ومنعُ رجلِ الأمنِ من أداءِ واجبِهِ.

- إنهَا تهمةٌ خطيرةٌ حقًّا، يا سيدِي . . .

ثمَّ التفتَ إلى عبدِ القادرِ:

- ماذَا تقولُ يا عبدَ القادرِ ؟

- أقولُ لا، وأعيدُها ! لن أذهبَ معكُمَا ! فمنْ أحقُّ بالطاعةِ، اللهُ تعالَى أو السيدُ عبدُ الصمدِ ؟!

ووقعَ الشرطيانِ في حَيْرةٍ. وسألَهُ رشيدٌ :

- ماذَا تعنِي ؟

- أعنِي أننِي إذا ذهبتُ معكُمَا تركتُ المضخَّةَ هنَا معرضةً للتخريبِ أو السرقةِ وهيَ ليستْ لِي، بلْ للحاجِّ حمادِي الريفِي الذِي أعارَنِي إياهَا لوجهِ اللهِ، تصدقًا منهُ على أسماكِ البحيرةِ. واللهُ تعالَى يقولُ في كتابِهِ العزيزِ: ﴿إنَّ اللهَ يأمرُكُم أن تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها وإذا حكمتُم بينَ الناسِ أن تحكُمُوا بالعدلِ﴾ صدق الله العظيم.

ووقفَ بينَ الشرطيينِ كالعملاقِ متحديًا إياهم أن ينقضَ كلمةَ اللهِ.

وتـردَّد عبـدُ الصمـدِ واحتـارَ، وأخـذتْ عينـاهُ الجاحظتـانِ تتحـركـانِ من اليمينِ إلى اليسـارِ، وهــوَ يبحثُ عن حلٍّ لهٰذِه المعضلةِ. وأخيرًا قـالَ، وقد استولـتْ عليهِ شهوةُ الانتقـامِ وعزةُ السلطةِ:

– ذلكَ أحسنُ، ستنالُ عقـابَكَ فِي هذِه الـدنيَا على أيـدينَا، ثم تنال جزاء فعلتك في الآخرة إن شاء الله!

وأطلقَ ضحكــةً زاعقــةً، شقَّتْ ظــلامَ الليلِ، وأفــزعتِ الأسماكَ في البحيرةِ، فقــالَ رشيــدٌ منقـذًا رئيسَــه من قــرارِهِ المجحفِ:

– عبدُ القادرِ معهُ حقٌّ...

وما كادَ عبدُ القادرِ يبتسمُ سعيدًا حتَّى أضافَ رشيدٌ:

– ولكنَّهُ نسيَ الآيـةَ الكريمـةَ: ﴿يا أيها الـذينَ آمنُـوا أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكُم﴾.

فبُهِتَ عبـدُ القـادرِ، ووقعَ في حيرةٍ، ووقفَ ينظـرُ إلى رشيـدٍ فاغرَ الفمِ، فتقدَّمَ عبدُ الصمدِ منهُ وقالَ منتصرًا:

- إذنْ بطلتْ حجتُك، ولم يبقَ لِي إلا أنْ أمسِكَ بـزمـارةِ قفـاكَ وأقتادُكَ إلى المركزِ! وأمسَك بقفاهُ، وهمَّ بِسحبِهِ، فأفلتَ منهُ عبـدُ القـادِرِ، وارتمَى علَى المضخـةِ وعانقَهـا، ولفَّ سـاقيْـهِ حـولَها، فـاستسلمَ رشيـدٌ للقهقهةِ المكبـوتـةِ حتَّى انهمـرتْ دموعُهُ، ولمْ يعدْ يرَى شيئًا...

وحـاولَ عبـدُ الصمـدِ فصلَ عبـدِ القـادِرِ عنِ المضخـةِ فلمْ يُفلِحْ، فنادَى مساعدَه ناهـرًا شاتمًا، فأقبلَ هذَا يمسحُ دموعَهُ، وأخذَ يحاوِلُ فـكَّ ساقَيْ عبدِ القـادرِ عنْ المضخةِ بكلِّ قـواهُ فلمْ يستطعْ. كـانَ جسـدُ عبدِ القـادرِ القـويُّ الملوحُ بـالشمسِ قـدْ أصبحَ طرفًا من الآلة...

وحينَ يئسَ من انتزاعِهِ قالَ لرئيسهِ:

- لعلَّ معَ صاحِبِنَا هَذَا شيئًا منَ الحقِّ كذلكَ.

فتـوقَّفَ عبـدُ الصمـدِ عـن الشـدِّ والسحبِ، ووقفَ لاهثًـا يسألُ:

- ماذَا تعنِي؟

- حجتُنَا عليهِ هِيَ الآيـةُ الكريمةُ : ﴿يا أيُّهَا الـذينَ آمنُوا أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الـرسولَ وأولي الأمرِ منكُم﴾ . فطـاعةُ اللهِ أسبقُ منْ طاعةِ الرسولِ وأولِي الأمرِ الذينَ هُمْ نحنُ. أعنِي أنتُم ، يا سيدي . . .

وانتعشَ أملُ عبـدِ القـادرِ في الإفـلاتِ من غضبِ النكـدِ ، ولكنَّ وكـزةً قويَّـةً نزلتْ على ظهـرِ رشيدٍ مصحوبـةً بصيحـةِ عبدِ الصمدِ :

- منْ طلبَ رأيكَ ؟!

وارتَمى علَى عبدِ القادرِ، وأخذَ يعضُّ يديْـهِ وساعدَيْهِ وذراعَيْهِ ليتركَ المضخةَ ، وهـذَا يصرُخُ من الألمِ ويستغيثُ ، دونَ أن يتركَ الآلةَ !

وخافَ عبدُ الصمدِ أنْ يسمَعَهُ بعضُ سكانِ المنازلِ القريبةِ ، وقدْ يكـونُ منْ بينِهِمْ أحدُ مجانينِ حقوقِ الإنسـانِ أو صحافيٌّ أو محامٍ ، فأخرجَ منـديلَهُ ، وكمَّمَهُ بـهِ ، وعادَ إلى محاولةِ اقتـلاعِهِ ، دونَ فائدةٍ !

وكفَّ رشيدٌ عنْ مساعدةِ عبد الصمدِ، ووقفَ ينفُضُ يديْهِ وقالَ:

- لن نقتلعَهُ من هناكَ ولوْ أحرقناهُ!

فلمعتْ عينَا عبدِ الصمدِ، وزادتَا جحوظًا، واستولَى عليهِ شيطانُ القسوةِ والشرِّ، وقالَ:

- واللهِ إنَّهَا فكرةٌ! سنوفِّرُ عليهِ وعلى أنفسنا تعبَ القبض عليه، وإلقاؤه في السجن، ثم محاكمته. هكذا أفضل... نعم!

وجاء بفنارِ الغازِ منْ فوقِ الصخرةِ، وفتَحَ خزانه، وأخذَ يصبُّ الغازَ علَى رأسِ عبدِ القادرِ. وارتاعَ رشيدٌ، وكفَّ عنِ المزاحِ، وقالَ:

- إنَّكَ لا تنوِي إحراقَهُ!

فالتفَتَ إليهِ عبدُ الصمدِ وابتسامةُ شيطانٍ في عينيهِ، وقالَ متحديًا:

- هل تراهنُ؟!

وشمَّ عبـدُ القادِرِ رائحةَ الغـازِ، وسمِعَ احتكـاكَ (الكبريتة) بجـانبِ العلبـةِ، فترك المضخـةَ، ووقفَ يهمُّ بـالفـرارِ. . . فأمسكَ بـهِ الشرطيـانِ، ووضَعَـا الغلَّ في يـديْـه، وسحبَـاهُ إلى القسمِ.

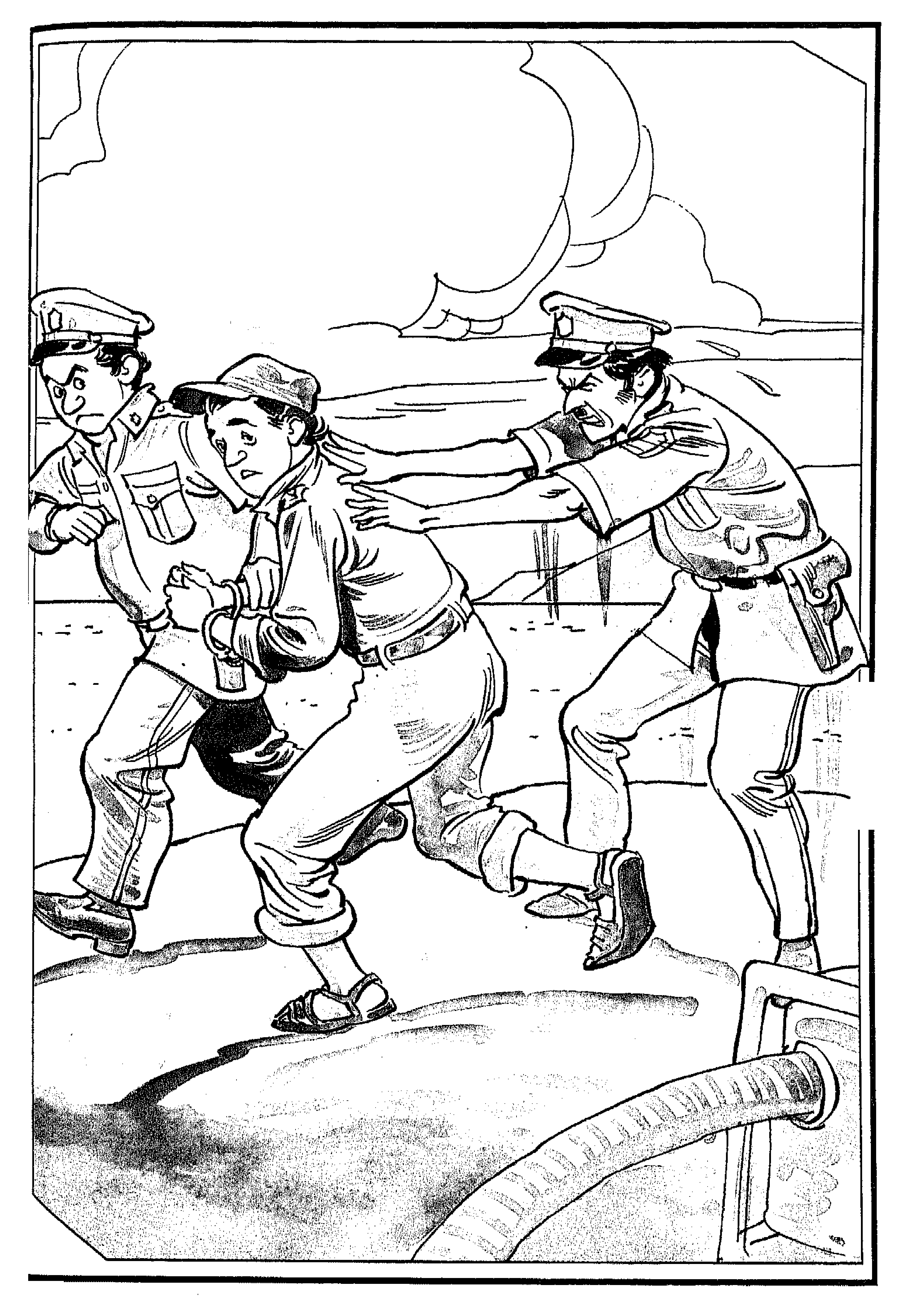
أمَّـا يونـسُ الفاضليُّ فقـدْ ركضَ حتَّى وصلَ إلى بيتِـهِ، ودفعَ البابَ، والتفتَ وراءَهُ لاهثًا ينظرُ هلْ تبِعَـهُ عبدُ الصمدِ. ووجدَ أمَّهُ ترتِّبُ مـائدَة العشاءِ. ونظرَ في غرفـةِ الجلوسِ، حيثُ يقعدُ والدُهُ قبالةَ التلفزيونِ، فلمْ يجدْهُ. وسألَ أمَّهُ، فأجابتهُ بسؤالٍ:

- لماذَا تريدُهُ؟

فحكى لهَا بسرعـةٍ مَا حـدثَ لعبدِ القـادرِ معَ عبدِ الصمـدِ النكدِ، فقالـتْ معلقةً على الشرطيِّ المشهورِ بحماقاتِهِ:

- ليسَ غريبًـا عنْ ذلكَ الديكِ الأعـورِ المسلولِ العنقِ! إنَّـهُ ما يفتأُ يجوبُ شوارعَ القريةِ كالعنزَةِ الضالةِ ولسانُ حالِهِ يقولُ: «هَل هناكَ مشكلٌ أو نوجدُهُ؟»!

وسألَ يـونسُ أمَّـهُ أينَ يمكنُ أن يكـونَ أبـوهُ قـد ذهبَ؟



فقالتْ: إنَّهُ لم يقلْ لهَا شيئًا كعادتِهِ. وأضافتْ:

- لماذا لا تـذهبُ بنفسِكَ إلى عميـدِ الشرطـةِ، وتحكِي لـهُ مـا حدثَ؟

وحينَ تردَّدَ يونسُ، قالتْ لهُ:

- إذَا لَمْ تتجـرَّأ عليْـهِ فـاذهبْ إلى ابنِـه رضـا؛ إنَّـهُ رفيقُكَ في المدرسةِ، ويرافقُكَ أحيانًا إلى البحيرةِ.

وخرجَ يـونسُ يجرِي إلى دارِ العميدِ الحاجِّ الصـادقِ أومليل. وعلى بابِ الدارِ حكَى لولدِهِ رِضَا الحكايةَ، فقالَ هذَا مستاءً:

- قد تكونُ هذهِ آخرَ أفاعيلِ عبـدِ الصمدِ النكدِ! فقدْ وجدتُنِي أحكِي لـوالدِي عمَّا تفعلُـهُ أنتَ والبنـاءُ عبـدُ القادرِ لإنقـاذِ أسماكِ البحيرةِ...

- ولكنْ، كيفَ عرفتَ؟

- حكَى لِي عبدُ القادِرِ قبلَ نزولِهِ بالمضخةِ، وكنتُ أحاولُ إقناعَ الـوالـدِ بـالتـدخلِ لـدَى رئيسِ قسمِ الإطفـاءِ، لإعـارتنـا مضختِهم القويةِ، لأفاجِئَكُما بهَا.

ودخلَ رضـا ليخبرَ والـدَه، ولم تمضِ إلا بضعُ دقـائقَ حتَّى خرجَ العميـدُ وعُودُ التخلُّـلِ بينَ شفتيهِ، وهـوَ يعقِدُ أزرارَ سترةِ بذلتِهِ الرسميةِ. . حيَّا يـونسَ باسمِهِ، وسألَهُ عن والِدِهِ، وركبَ سيارةَ الجيبِ التِي كانتْ واقفةً بالبابِ، وأركبَ معَهُ الغلامَيْنِ، وانطلقَ نحو المركزِ.

ومَا اقتربُـوا منهُ حتَّى تـرامَى إليهمْ أزيزٌ كأزيـزِ النحلِ، كانَ يعلُو حتَّى على هديـرِ المحرِّكِ! وفتَحَ الثلاثةُ النـوافذَ فإذَا الأزيرُ أصـواتُ غلمانٍ وأولادٍ آتيةٌ منْ جهـةِ مركـزِ الشرطةِ. ولـولا أنَّ الجنائزَ لا تكونُ ليلاً لظنُّوا أنَّهُ موكبُ جنازةٍ.

وحينَ دخلُوا الشارعَ الذِي يقعُ فيـه المركزُ لاحتْ لهمْ مشاعلُ وشموعٌ كثيرةٌ يحملُهَـا صغارٌ متجمهِـرُونَ علَى بابِ المركـزِ وهمْ يقرأونَ المعوذتينِ بصوتٍ واحدٍ:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قـلْ أعوذُ بربِّ الفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * ومِن شَرِّ غَـاسِقٍ إذَا وَقَبَ * ومِـن شرِّ النفـاثـاتِ في العُقَدِ * ومن شرِّ حـاسِدٍ إذَا حَسَدَ﴾ . بسمِ اللهِالـرحمنِ الرحيمِ

﴿قلْ أعوذُ بـرَبِّ الناسِ * ملكِ الناسِ * إلـهِ الناسِ * من شَرِّ الوسـواسِ الخنّاسِ * الـذِي يوسـوسُ في صدورِ النـاسِ * منَ الجِنَّةِ والناسِ﴾ .

وابتهجَ يونسُ ورضَـا ، واشتدَّ عضُداهُما حينَ تعـرَّفَا الأولادَ ؛ كانُوا جميعًا من أبناءِ مدرستِهِم . وتساءَلَ العميدُ :

– يا تُرَى ، منْ أخبرَ هؤلاءِ؟

فقالَ يونسُ :

– لا أدرِي . لعلَّهُـم كـانُوا في منتَداهُـم علَى الشـاطئِ ، ورَأَوا عبـدَ الصمـدِ يقتـادُ عبـدَ القـادرِ إلى المركـزِ فقـرَّرُوا تنظيمَ التظاهُرةِ .

فقالَ العميدُ :

– هذهِ أولُ تظـاهرةٍ مـنْ نوعِهـا تشهدُهـا هذهِ القـريةُ الهادئةُ !
ولولا ذلكَ الطائشُ عبدُ الصمدِ لما سُجِّلَتْ هذهِ السابقةُ !

وفَسَحَ الأولادُ الطـريقَ أمـامَ جيـبِ العميـدِ ، وأحـاطُـوا بـهِ يهتِفُونَ بحيـاتِهِ وحيـاةِ العدلِ . وخـرَجَ هوَ من السيارةِ يحيِّيهِمْ ويطمئِنُهُم . وصعَدَ الـدرجاتِ الثلاثَ إلَى بابِ المركـزِ . وفوجِئَ

بهِ مقفَلاً، علَى غيرِ عـادتِهِ، وبصوتِ صراخِ عبدِ القـادرِ البناءِ واستغاثَتِه يأتِيانِ من داخِلهِ. فطرقَ البابَ طرقًا عنيفًا، وصاحَ:

- افتحْ، يا نكِدُ!

وبعـدَ لحظـةِ انتظـارٍ وتـرقُّبٍ انفتحَ البـابُ علَى مصراعَيْـهِ، واندلقَتْ منهُ موجةُ ماءٍ باردٍ صدمتْ وجهَ العميدِ، وأغرقَتْهُ منْ قُبَّعَتِـهِ إلى حذائِهِ! وارتعشَ الـرجلُ بشدةٍ وبَصَقَ الماءَ من فِمـهِ، ووقفَ ينظُـرُ إلَى بذلتِهِ الـرسميَّةِ وهـيَ تقطرُ ماءً، وأخـذَ يمسحُ وجهَهُ. وجاءَهُ صوتُ عبدِ الصمدِ:

- آسفٌ، يا سيدِي! كنتُ فقطُ أريدُ أنْ أطفِئَ النيرانَ التِي جاءَ بهِا الغوغاءُ لإحراقِ المركزِ...

ونظـرَ العميـدُ إلى الشرطيِّ الأحمقِ، وهـو يتميَّـزُ من الغيظِ، ولا يدرِي منْ أينَ يبـدأُ بالردِّ عليهِ، ولا ماذَا يفعـلُ بهِ... كانَ فِي مثلِ هذهِ الحالاتِ يردِّدُ في سرِّهِ الآيـةَ الكريمةَ: ﴿والكاظمينَ الغيظَ والعـافينَ عنِ النـاسِ﴾، يقـرأُها ثـلاث مـراتٍ حتَّى لا يتسرَّعَ ويتصرفَ عنْ غضبٍ.

وسمِعَ الشرطيَّ الأحمَقَ يقولُ لهُ، وكأنَّ شيئًا لمْ يقَعْ :

- تفضَّلُوا، يا سيدِي. جئتُم فِي الوقتِ المناسبِ. . . فقْد قبَضْنَا علَى أكبرِ مجرمٍ في البلادِ!

وأشارَ إلى عبدِ القادرِ الذِي كانَ نصفَ معلقٍ بالسقفِ، وقد ارتفعَتْ ساقَاه، ولم يبقَ علَى الأرضِ إلا رأسُه وكتفَاه، وهو يئِنُّ ويستعطِفُ جلاديه. . .

وسيطَرَ العميدُ على أعصابِهِ، وقرَّرَ مسايرتَه، وقد ظنَّ نفسَهُ في حُلْمٍ عجائِبيٍّ!

فسألَهُ :

- ماذا فعلَ ؟ هلْ قتلَ أحدًا ؟

- بلْ أكثرَ منْ ذلكَ، يا سيدِي !

- هلْ قتَلَ عدَّةَ أشخاصٍ ؟

- بل أفظعَ منْ ذلكَ !

- ماذَا فعلَ إذنْ ؟

- إنَّـهُ تحدَّى السلطـةَ، وقاوَمَ الاعتقـالَ. ومن يقـاوم الاعتقـالَ يُهدر دمُه.

وأخرجَ من جيبِه كناشَ القـوانينِ والتعليماتِ، ومدَّهُ إليهِ وهوَ عبارةٌ عن كتلةِ عجينٍ من الـورقِ المبتلّ، وانصرفَ هوَ إلى الحبلِ المتـدلِّي من خـرصـةٍ بالسقفِ وإلى رجلَيْ عبـدِ القـادرِ، وأخـذَ يسحبُه ليعلِّقَ الأسيرَ.

وكـانَ الغيظُ قـد بلغَ بالعميـدِ منتهـاهُ، فقـالَ لعبدِ الصمـدِ بصوتٍ هادئٍ حازمٍ:

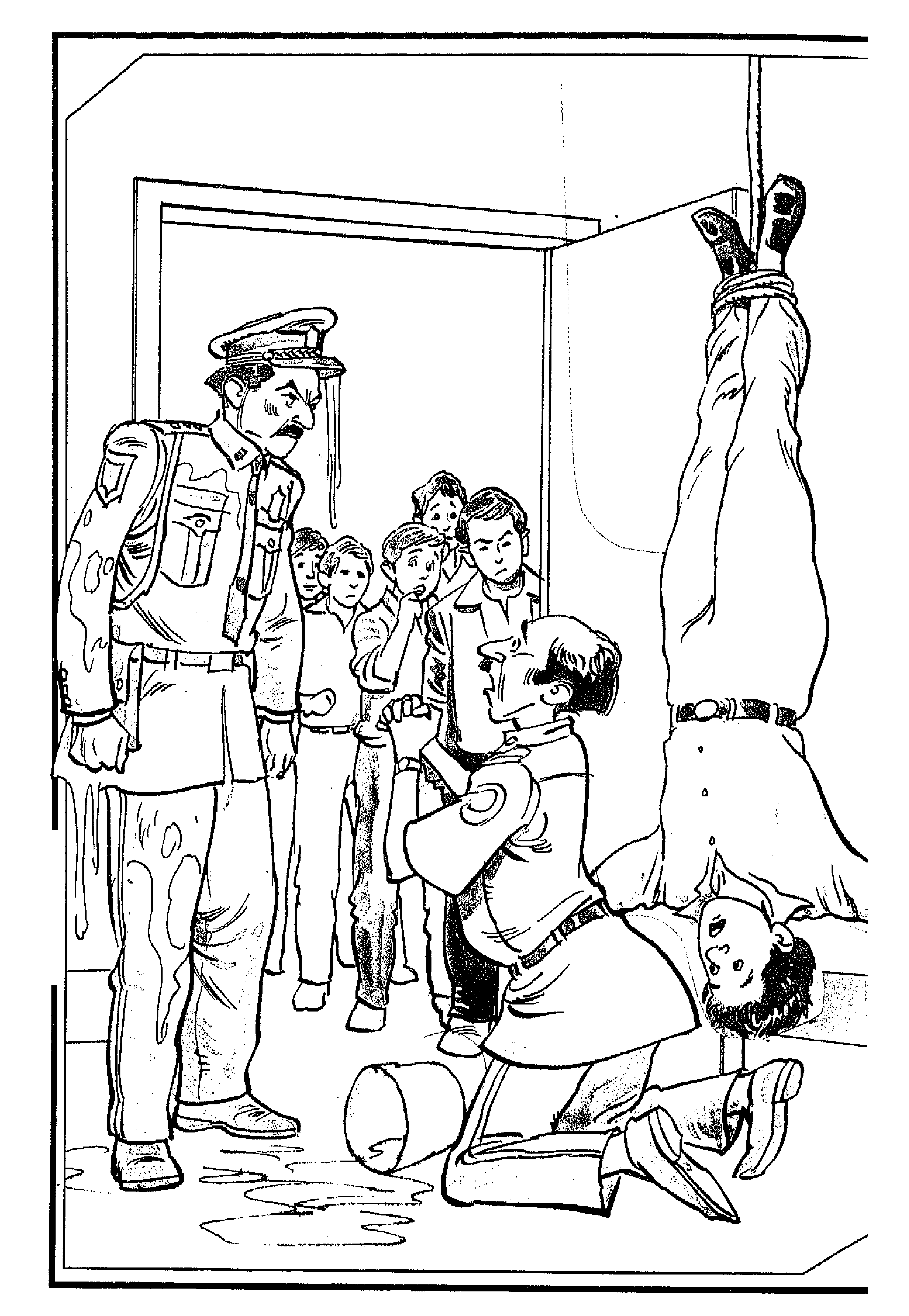
- اترُكْ ذلكَ الحبلَ.

- ماذَا، يا سيدِي؟

- قلتُ لكَ، اتركْ ذلكَ الحبلَ.

فقالَ عبـدُ الصمدِ، وقد زادَتْ عينـاهُ جحوظًا وعنقُـهُ طولاً، وارتسمتْ علَى وجهِهِ ابتسامةٌ بلهاءُ، وهو يقدِّمُ الحبلَ للعميدِ:

- تريدُ أن تعلِّقَهُ أنتَ، يا سيدِي؟ هاكَ، تفضَّلْ!



- أريدُكَ أنْ تطلقَ سراحَهُ.

- تـريـدُنِي أن أطلِقَ سراحَ هذَا المجـرمِ العُتُلِّ الخطيرِ ؟! لا بُـدَّ أنَّكَ تمزحُ !

وأطلَقَ ضحكةً ديكيَّـةً مفتعَلةً، وعادَ إلى جـذبِ الحبلِ بهمَّةٍ وحزمٍ.

وهنَا فسخَ العميدُ حزامَهُ الجلديَّ العريضَ، ورفعَهُ وهوَى بِهِ علَى ظهرِ الشرطيِّ المجنونِ، وهو يسبُّ المهنةَ التِي جمعتْهُ بمثِلِه!

وفـوجِئَ عبـدُ الصمدِ بثـورةِ العميـدِ، ولمْ يفهمْ لهَا سببًـا في منطِقِه العجيـبِ، فارتمَى على قدمَـي العميدِ يـريدُ تقبيلَهُمَا.. والعميـدُ يبتعـدُ ويضـربُ بعنـفٍ انتقـاميٍّ ! وحيـنَ أدركَ عبـدُ الصمدِ أنَّ رئيسَـهُ غاضبٌ منـهُ فعـلاً وأنَّهُ لنْ يتـوقَّفَ عنِ الضَّربِ، زحفَ بيْنَ سـاقَيْهِ على يـديْهِ وركبتيـهِ صوبَ البـابِ، وخـرجَ هـاربًـا... وتَبِعَـهُ العميـدُ، وسـط هتـافِ الأولادِ وتشفيهِمْ منَ الشرطيِّ القـاسي المجنـونِ، والحزامُ الغليظُ يهوِي علَى ظهرِهِ ورأسِهِ، وهوَ يرسِلُ أصواتًا عجيبةً مُضْحِكَةٍ. وأخيرًا

ارتمى علَى الأرضِ، واستلقَى على قفاهُ، وأخذَ يصيحُ:

- سيدِي، أمهِلنِي، وأنَا أعترفُ لَكَ!

وتوقَّفَ العميدُ الهائجُ عنِ الضربِ حينَ سمِعَ كلمةَ الاعترافِ. فقامَ عبدُ الصَّمَدِ، ونفَضَ عن بذلَتِهِ الترابَ وقالَ:

- سيدِي، أريدُ أنْ أخبِرَكُمْ بأنَّ ضَرْبَ رجلِ الشُّرْطَةِ ممنوعٌ في القانونِ، وخصوصًا أمامَ الناسِ.

فهَمَّ العميدُ لفَرطِ غيظِهِ بالارتماء عليهِ وغَرزِ أسنانِهِ في رأسِهِ، ولكنَّهُ وقفَ يستغفرُ اللهَ، ويردِّدُ آيتَهُ المعهودةَ، ثمَّ قالَ:

- معَكَ حقٌّ! لذلِكَ سأعفِيكَ مِنْ عملِكَ في الشرطةِ! فأنتَ منذُ اللحظةِ مفصولٌ ومبعدٌ ومطرودٌ! ولنْ أخالفَ القانونَ إذا نزلتُ فيكَ بحزامِي هَذا ضربًا وجلدًا وخبطًا ودكًّا وهلكًا...

فقاطعَهُ عبدُ الصمدِ، وهو يركضُ مصحِّحًا:

- بلْ إهلاكًا، يا سيدِي، وليسَ هلكًا... إنَّهُ مِنْ فعلٌ رباعِيٌّ!

فـانفجرَ الأولادُ ضحكًـا من غرابـةِ أطـوارِ الشرطيِّ وأفعالِـهِ العجيبةِ.

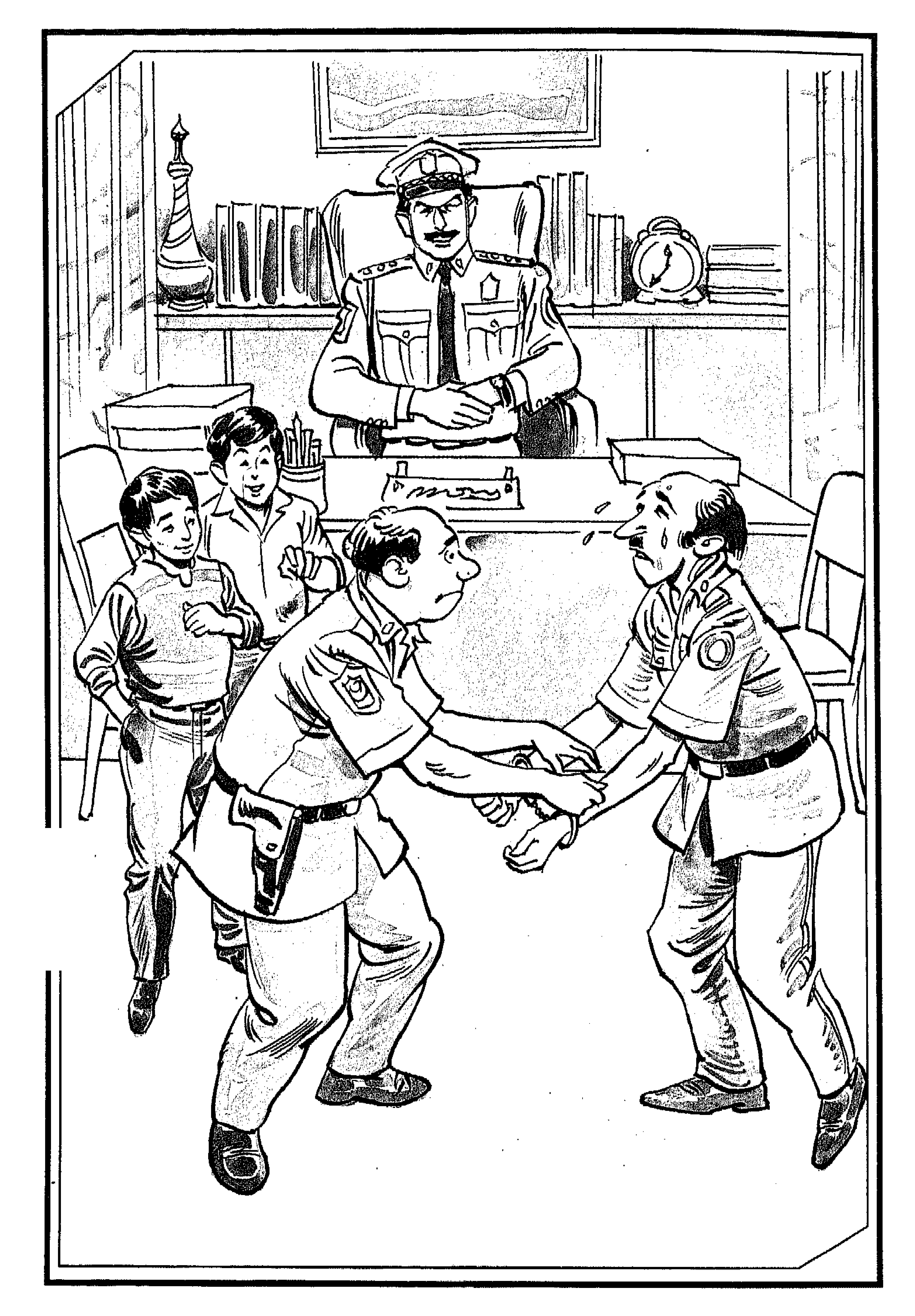
وتوقَّفَ العميـدُ عن مطاردتِـهِ، وأخذَ يحرِّكُ رأسَـهُ تعجُّبًا من طبعِ هذَا المخلوقِ الغريبِ.

وأَخيرًا تبسَّمَ، وانضَمَّ إلى الأولادِ في ضَحِكِهِمْ، رَغْمَ غَضَبِـهِ السابقِ وابتلالِ بذلتِهِ.

وتوقَّفَ عبدُ الصمدِ عنِ الـركضِ، وعادَ بعدَ أن رأَى العميدَ يضحكُ، مـادًّا يديْـهِ إليـهِ ليغلَّهُمَا. وألقَى رشيدٌ الغلَّ في يـدَيْ رئيسِـهِ السابِق، وهـو يعتذرُ لَـهُ، وعـادَا بِهِ متبـوعَيْنِ بتَظاهُـرَةِ الأولادِ إلى المركزِ، حيثُ وضعَـاهُ في غرفةِ الحجـزِ، وهوَ يغنِّي: «مظلوم أنا والله مظلوم!».

وأفـرجَ العميـدُ عـنْ عبـدِ القـادرِ البنـاءِ، واعتــذَر لـهُ عن تصرفـاتِ عبدِ الصمـدِ الخرقاءِ، وأمـرَ رشيـدًا بأخذِهِ في سيـارةِ المركزِ إلى البحيرةِ ليستأنِفَ عملَهُ في ملئِها.

وخــرجَ إلى حيثُ كــانَ الأولادُ ينتظـرونَ، فشكَــرَهُمْ علَى



اهتمامِهِمْ بشؤونِ القريةِ، وعلَى غَيْرَتِهِمْ على بيئتِها الطبيعيَّةِ. وطلبَ منهُمْ أنْ يأتُوا في اليومِ الموالِي إلى البحيرةِ، بعدَ صلاةِ العصرِ، وقالَ لهُمْ: «عندِي لكُمْ مفاجأةٌ سارَّةٌ!».

وبعدَ صلاةِ عصرِ اليومِ الموالِي، حضرَ يونُس إلى البحيرةِ قُبَيْلَ الموعِدِ بقليلٍ، وألقَى إلى الأسماكِ بمَا جاءَ به من بقايا الطعامِ، وانضمَّ إليهِ بعضُ رفقائهِ، ووقفُوا يتفرَّجُونَ عليهَا، وهيَ تتسابقُ إليهِ، وتقفزُ فوقَ الماءِ.

ولم تمضِ نصفُ ساعةٍ حتَّى كانتْ ضفافُ البحيرةِ قدِ امتلأتْ بالأولادِ؛ فقد حضرَ جميعُ منْ شاركُوا في تظاهرةِ الليلةِ السابقةِ، وجاءُوا معهُمْ بأصدقائِهِمْ ورفاقِهِمْ الذينَ لم يحضُرُوا..

وبينَما همْ كذلكَ، إذ حضرَ العميدُ ومساعدُه رشيدٌ في سيارةِ المركزِ، تتبعُها سيارةُ المجلسِ البلدِّي، وبهَا رئيسُ المجلسِ وعددٌ من أعضائِهِ.

وتقدَّمَ رئيسُ المجلسِ، وكانَ شابًّا ممتلئًا حيويَّةً، فرفعَ يديْهِ

تحيةً لـلأولادِ المتجمْهِرينَ حـولَ البحيرةِ، وصعدَ فـوقَ صخرةٍ كبيرةٍ ملساءَ، وقالَ:

«أبنائِي الأعزاء، لقدْ أخبرني السيِّدُ رئيسُ الشرطةِ بمَا حدثَ بـالأمسِ، وبـالـدَّور الشجـاعِ الـذِي قـامَ بـهِ أحـدُ رفـاقكُم، وبالجهـدِ الذي بذلَـهُ هوَ وأفرادُ أسرتِـهِ، بمساعدةِ عبـد القادرِ البناءِ، لإحيـاءِ هذهِ البحيرةِ الشاطئيّـةِ الجميلةِ و إنقـاذِ أسماكِهَا من الموتِ؛ كلّ ذلكَ حبًّـا منـه في البيئـة، ورغبةً في المحـافظـةِ عليهَـا صحيَّةً سليمـةً. وهي مبـادرةٌ حميدةٌ تستحـقُّ كلَّ تنويـهٍ وتقـديـرٍ وتشجيعٍ. لـذلكَ رأى المجلسُ أنْ يطلِـقَ اسمَ أحـدِ أبطالِ الكفـاحِ من أجلِ البيئةِ عليهَا؛ جزاءً لجميعَ منْ شـاركُوا في عمليةِ الإحياءِ والإنقاذِ...».

وأشارَ إلى أحدِ عمَّال البلـديةِ وراءَه، فجاءَ هذَا بـلافتةٍ مغطاةٍ بقماشٍ علَى عمودٍ من حـديدٍ، ركـزَهَا في ثُقبٍ فـوقَ الصخرةِ، ونظرَ إلى الأولادِ وقالَ:

«أريدُ متطوِّعًا منكُمْ لإزاحةِ الستـارِ عن اللافتة»، وأشار إلى يونسَ، وقالَ لهُ:

«أنتَ، صاحبَ القميصِ الأخضرِ، تعالَ ساعدنِي من فضلِكَ. . .»

وصعدَ يونُسُ الصخرةَ، وأمسَكَ بالشريطِ الحريريِّ، وسحبَهُ، فإذَا اللافتةُ مكتوبٌ عليهَا:

بُحَيْرَةُ يونُسَ الفاضليِّ

يُمنَعُ الصَّيْدُ وغَسْلُ الأشياءِ هُنا

ولمْ يصدِّقْ يونسُ عينيْهِ. . . وعَلا هتافُ الأولادِ وتصفيقُهُمْ. . .

وأخرجَ رئيسُ المجلسِ البلديِّ ورقةً ملفوفةً من جعبة نحاسٍ، وفتحَها وقرَأ:

«بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، ابتداءً من اليومِ، الجمعةِ الخامسِ منْ ربيعٍ الثانِي عامَ ١٤١٦ هـ، الموافقِ فاتحَ سبتمبرَ ١٩٩٥ م أصبحتْ بحيرةُ الصخرةِ تعرفُ ببحيرةِ يونسَ الفاضليِّ؛ اعترافًا بفضلِهِ وجميلِهِ عليهَا وعلَى حياةِ الأسماكِ والطحالبِ بهَا، وتشجيعًا لجميعِ الأولادِ والبناتِ على الاقتداءِ بهِ. وهذهِ شهادةٌ رسميةٌ لهُ بذلكَ».

ولفَّهَا بعنايةٍ، وأعادها إلى جعبَتِهـا، وسلَّمَه إياهَا، وصافحَهُ بحرارةٍ . . .

ووقفتْ غُصَّـةٌ حاميـةٌ في حَلْقِ يونسَ من التأثُّـرِ، ولم يدْرِ مـا يقولُ غيرَ ترديده :

«شكرًا، شكرًا لك، يا سيدِي . . شكرًا لكُم جميعًا . . .» .

وبعـدَ يومينِ ظهـرتْ صورتُـه في صحيفـةٍ محليةٍ، معَ مقـالٍ يحكِي قصةَ البحيرةِ، ونقلتِ الصحفُ الـوطنيةُ الكبرَى الصورةَ والمقالَ . . .

وبعـد بضعةِ أيـامٍ تسلَّمَ يـونُسُ الفـاضليُّ برقيَّـةً من منظمـةِ «السلامِ الأخضرِ» العـالميَّةِ، تهنِّئُهُ فيهَـا على مبادرَتِـهِ، وتعرِضُ عليْهِ عضويَّتَهَا، وتكوينَ خليَّةٍ مِنْ أصـدقائِهِ للدعوةِ لمبادئِها، ونشرِ الوعيْ البيئيِّ بينَ الصغارِ والكبارِ في محيطِهِ .

ومنذُ ذلكَ اليومِ تغيرَتْ نظرةُ يونـسَ الفاضليِّ إلى كلِّ ما حولَهُ منْ نباتٍ وحيـوانٍ وحتَّى الفراشـاتِ والحشراتِ، وأصبحَ وقتُ فراغِـهِ الذي لمْ يكُنْ يدرِي مَـا يفعلُ بهِ عـامرًا بالنشـاطِ المفيدِ،

كالاجتماعِ بأعضـاءِ خليتِهِ الفتيةِ وقـراءةِ كتبِ السلامِ الأخضرِ، عن تجاربِ الآخرينَ ومغامراتِهم الشيقـةِ لإنقاذِ الحيتانِ والفهودِ والطيورِ المهـددةِ بالانقراضِ، ومحاولةِ تطبيقِ مـا يمكنُ تطبيقُهُ منْ توصيـاتِهَا، والمساعـدةِ على تكوينِ خلايـا بيئيةٍ جـديدةٍ في المدنِ والقرى المجاورةِ، والبعيدَةِ أيضًا.

وذات ليلـةٍ استيقظَ يـونسُ على هـديرِ الأمـواجِ، فقفـزَ من فِـراشِهِ، وفتَحَ النـافذَةَ على الشـاطئِ الصخريّ، ووقفَ يتفـرَّجُ عليْهَا، تحتَ ضـوءِ القمرِ الباهِـرِ، وهيَ تقتحمُ الجُرْفَ الفاصلَ بينَ البحرِ والبحيرةِ، وتنصبُّ داخلَهَـا، وتملؤهـا، بلْ وتغطِّيها تمامًا . . . وخـدَّرَهُ المشهدُ الـرائعُ. وفكَّرَ في أصـدقائِهِ الأسماكِ، وهيَ تحتفلُ بعـودةِ مـاءِ البحـرِ النقيِّ وبهديـرِ الموجِ المطـربِ، وتحمَدُ اللهَ على أنَّهُ لمْ يتركها.

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبدالسلام البقالي، الحاصل علي جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب للقارئ أحداث الماضي البعيد، ويلقي الأضوا المستقبل، بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاد فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية ا الحديثة للشباب في العالم العربي.

مكتب